رواية

أريانا هارويكز

مكتبة

لَتَمُتْ يَاحبيبي

ترجمة: إشراق عبد العادل

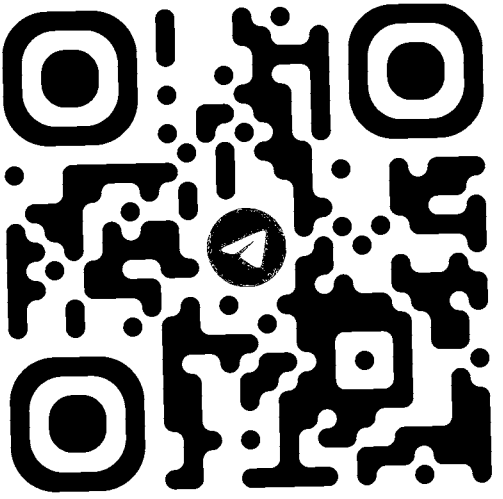

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

لتَمُتْ يا حبيبي

رواية

Author: **Ariana Harwicz**	اسم المؤلف: أريانا هارويكز
Title: **Matate, amor**	عنوان الكتاب: لِتَمُتْ يا حبيبي
Translated by: **Ishraq Abd Al-Adil**	ترجمة: إشراق عبد العادل
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2021**	الطبعة الأولى: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright @ Ariana Harwicz 2O12,
published in arrangement with Michael Gaeb
Literary Agency, Berlin

Cover photo © Sebastián Freire

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون – شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

مكتبة

t.me/soramnqraa

أريانا هارويكز

مكتبة
t.me/soramnqraa

لِتَمُتْ يا حبيبي

ترجمة : إشراق عبد العادل

مكتبة
t.me/soramnqraa

المقدمة

«لِتَمُتْ يا حبيبي» هو أول عمل روائي للكاتبة الأرجنتينة أريانا هارويكز، التي تمكنت من خلاله أن تطرح نفسها بقوة كواحدة من أهم الأصوات الروائية الأرجنتينية المعاصرة. رواية صادمة غير تقليدية، صُنفت بأنها محاكاة للأدب الوحشي أو النفسي تحكي قصة وجود تراجيدية لامرأة ذات طبيعة وحشية عبر فصولها المختصرة التي تشبه في مضمونها ضربات فأس أو صفعات.

تغيب الأسماء في هذه الرواية كما تغيب الأزمنة وتسلسلها، ويحضر صوت الأحداث على لسان شخصيتها الرئيسة عبر مونولج داخلي يسرد أحداث قصة امرأة على حافة الجنون، امرأة تعلق في محيط ريفي ينأى بها عن المدينة، لتعيش في بيت تحيط به المراعي والغابة.

وتتحول الغابة إلى الملاذ الذي تهرب إليه البطلة باستمرار للبحث عن ذاتها التي تضيع وسط الأهواء التي تتلاعب بعقلها، وإلى خلاص من حياة رتيبة مشبعة بالملل وإلى تحرر من قيود العائلة (طفل وزوج وبيت).

وفيما يتخذ البناء السردي في هذه الرواية في كثير من أجزائه خطاً نثرياً مستقيماً يحطم الشكل التقليدي للرواية، حتى تغيب الصيغ الفعلية، لنجد أنفسنا أمام نصٍّ تتجرد فيه اللغة من الأزمنة وتترك الخيارات إلى توقعات القارئ وشكوكه وإحالاته وبحثه عن وقت وقوع الحدث كما تكشف في الوقت ذاته عن لغة صادمة وأخرى سردية وشعرية ووجدانية في آنٍ معاً.

ومن دون إنذار مسبق يتغير مسار هذا المونولوج عندما تتقمص البطلة شخصية زوجها ليصبح هو الصوت الذي يسرد تفاصيل أحد فصول الرواية من زاويته هو.

وتقدم أريانا هاركويز في هذه الرواية نمطاً من النساء يثير التعاطف في نفس القارئ بسبب اضطراباتها التي تحيلها إلى كائن ضعيف، لكنه سرعان ما يتخلى عن شعوره هذا عندما يستفزه بل يثير نفوره واشمئزازه شعور مناقض يمارسه عليه سلوك وحشي غريب يرافق البطلة على امتداد الرواية. بل يسبقه شعور مفاجئ آخر يقوده إليه عنوان الرواية «لتَمُتْ يا حبيبي» وما تلاه من بداية حيث تداعب البطلة السكين بيدها وتراودها فكرة قتل زوجها وابنها. امرأة لا تكف عن السعي إلى موتها وهي ترى في نفسها صورة المرأة الشهوانية التي تطاردها رغباتها ورغبات من يطاردها من الرجال الذين تذعن لهم باستسلام.

نجحت هارويكز في إثارة مشاعر القارئ وخلخلة مزاجه وخلق شعور بعدم الارتياح لديه وهي تعكس حالة الازدواجية التي تعانيها شخصية تلك المرأة وتلك الانتقالات المفاجئة لها وسط الرغبة التي تتنازعها تجاه زوجها والشعور بالنفور منه بل الرغبة في إزاحته من الوجود وهي تعمد إلى فرض سطوة لغة فجة ومباشرة. لغة تزداد صعوبة وتعقيداً وقرفاً كلما اقتربت من أسلوبية تفتقر إلى الحياء وتتعمق في رؤى حميمية وحسية جريئة عبر صيغة اقترحتها الكاتبة وأكدتها وهي تقول: «نعم، عندما أكتب أحاول تحطيم اللغة وتفكيكها، بين مزدوجين أحاول أن لا تجمعني بها علاقة حسنة، إذ إنني بفعل تحطيم اللغة وضربها أبحث عن دوزنتها وكأنها آلة موسيقية، آلة كمان أو بيانو مثلاً».

من جانب آخر أثار أسلوب هارويكز الوحشي السافر عدداً من الكُتّاب إذ قدمت الناقدة الأدبية آنا كورلات كاستيو عرضاً نُشر في مجلة «*Revista eñe*» عبرت فيه عن رفضها لأسلوب هارويكز قائلة: «أريانا هارويكز لا تكتب، إنها تتقيأ. تتقيأ كلمات تخضع للمعالجة، كلمات تنتهك الحرمات وكلمات متكلفة».

لقد تمكنت هاوريكز بلغتها هذه أيضاً من استنطاق حالة الاضطراب الكامن داخل شخصية البطلة، وهي الصورة التي يراها من يحيط بها جنوناً أو هيستيريا أو فصاماً أو هماً يتلبسها وهي تؤكد بأنها شخصية تنتمي إلى واقع لا نجرؤ على كشفه أو بالأحرى «المساس به» لكنها نعم فعلت ذلك بخشونة وعنف.

لكن هذا العنف يهدأ ويستكين عندما تستسلم إلى عالم شرودها وتجليها مع ذاتها. الذي تسحبنا إليه هارويكز عالم الشعر وتأملاته، تقول الكاتبة سيلجا هيلبر: «توظف هارويكز في هذه الرواية لغة جميلة مزجت فيها الكاتبة بين الدراما والشعر، لغة بصرية تهيمن على مناخ الرواية. إنها لغة استثنائية تحاكي فيها أصوات الحيوانات وتتيح الاقتراب من الطبيعة ودهشتها».

لم يكن سرداً بل كان نسجاً شعرياً واضحاً، انعكس على شكل جمل شعرية قصيرة شفافة شكلت الثلث الأخير من الرواية حيث يزداد حضور الطبيعة ومشاهدها.

ويمكننا أن نطلق عليها فصولاً شعرية، إذ إنها لا تُظهر أحداثاً بعينها بل تخلق مناخاً تتكثف فيه الصورة الشعرية.

وتمارس الطبيعة تأثيرها على البطلة وتدفعها إلى حالتين متناقضتين تتصارعان داخل جسدها الهارب دوماً. حالتان من المشاعر يتقاسمهما عقل البطلة تأمل واسترخاء وعشق مجنون للطبيعة وأشجارها وأنهارها ونهاراتها وحيواناتها يقابله حزن وتوق للموت والقتل والغرق في الوهم.

يشير أغلب الكُتّاب الذين قرؤوا رواية هارويكز هذه إلى أنه نص

تستحضر فيه الكاتبة الجوانب السيكولوجية في أعمال غي دي موباسان ومناخات الرعب القاتمة في نصوص إدغار آلان بو وخطابات العنف ونبرتها الانتهاكية في (أناشيد مالدورو) للوتريامون.

إنه عمل صعب ومعقد وصعوبته لا تكمن في فكرته أو موضوعه الذي اقترحته هارويكز، بل في لغته. ولعل أسلوباً كهذا يحتاج إلى قراءة متأنية يعيد بها القارئ تفكيك لغة هذه الرواية والدخول إلى عالمها.

إشراق عبد العادل

أريانا هارويكز

ولدت الكاتبة والروائية الأرجنتينية أريانا هارويكز في العام 1977 في بوينس آيريس، درست في الأرجنتين ثم أكملت دراساتها الجامعية في فرنسا وتخصصت في دراسة كتابة السيناريو والمسرح والفنون الأدائية، ثم حصلت على شهادة الماجستير في الأدب المقارن في السوربون وهي تقيم في فرنسا منذ العام 2007.

وانتقلت إلى العيش في منطقة تقع في ريف باريس بعد أن أنهت دراساتها، لتبدأ الكتابة هناك ولتعلن عن ظهورها لأول مرة على الساحة الأدبية بعملها الروائي الكبير الأول «لتَمُتْ يا حبيبي»، الذي صدرت الطبعة الأولى منه في العام 2012 في الأرجنتين عن دار نشر باراديسو، ثم تبع ذلك طبعات أخرى في عدد من البلدان الناطقة باللغة الإسبانية أيضاً: إسبانيا عن دار نشر «لينغوا دي ترابو» وفي تشيلي.

أصدرت أريانا هارويكز بعد هذه الرواية عملين روائيين آخرين، «المُختلة» العام 2013 و«الناضجة قبل الأوان» في العام 2015، كما كتبت هارويكز العديد من السيناريوهات ونصوص الأفلام.

رشحت رواية «لتَمُتْ يا حبيبي» إلى العديد من الجوائز الوطنية والدولية منها الجائزة الوطنية لأفضل كتاب في العام بنسختها الإنجليزية، وجائزة كونشنشس برايز البريطانية، كما أدرجت ضمن القائمة الطويلة لجائزة بوكر مان الدولية للعام 2018، كما رُشِّحت في العام 2019 بنسختها المترجمة إلى الألمانية لجائزة ليبلنغ الدولية للآداب في ألمانيا.

في العام 2019 صدرت لهارويكز الطبعة الإسبانية الأولى لرواية Degendrado عن دار آنا غراما.

ترجمت رواية «لتَمُتْ يا حبيبي» إلى عشر لغات عالمية: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والكرواتية والبولندية وعدد من اللغات الأخرى.

كُتب الكثير من الدراسات والمقالات النقدية والتحليلية عن هذه الرواية في كل من إسبانيا وبريطانيا وتشيلي وأميركا. كما صدر عدد من البحوث التي تؤكد صعوبة ترجمة هذه الرواية بسبب غرائبية لغتها وأسلوبها السردي غير المألوف.

وتعترف الكاتبة الأرجنتينية أريانا هارويكز مؤلفة «لتَمُتْ يا حبيبي» خلال محاضرة لها ألقتها في جامعة كولونيا في ألمانيا في كانون الثاني/ يناير 2017 بصعوبة ترجمة نصوصها معلقة: «على الرغم من صعوبة لغتي إلا أنه لا يستحيل ترجمتها».

وفي هذا الصدد أصدرت مجلة دراسات الأدب الهسبانية *Revista de literatura hispánica* في عددها 87 الصادر في العام 2018 مقالاً نقدياً كتبته سيلجا هيلبر تحت عنوان: «لتَمُتْ أيها المُترجم» في إشارة إلى الصعوبة التي سيواجهها مترجمو رواية أريانا هارويكز «لتَمُتْ يا حبيبي» على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم.

وعلى الرغم من أن هارويكز مقيمة في باريس، إلا أن الأرجنتين هي المساحة الأوسع التي يتحرك فيها خيالها لينعكس في نتاجها الأدبي، ولم يمنعها ذلك من وجود حبكة تلمِّح بها إلى فرنسا، كطرحها بطلة الرواية بوصفها امرأة مهاجرة من أصول أرجنتينية، على سبيل المثال عندما يلثغ صغيرها بالمفردة الفرنسية «كوكوريكوت» بدلاً من لفظة «كيكيرريكي» الأرجنتينية التي يستخدمها الصغار وهم يحاكون صوت الدجاج. ومرة أخرى عندما تُذَكّر في مكان آخر من الرواية بمعاقبة النساء الخائنات في فرنسا القروسطية.

ومقابل ذلك تتمسك هارويكز بلغتها وثقافتها من خلال حضور اللفظ

والتعبير الأرجنتيني في نصوصها وما تفيض به اللغات المحلية من صيغ متنوعة دُرج على استخدامها ليس في الأرجنتين- (نهر الفضة)- وحسب بل في بلدان أمريكا الوسطى جميعاً، بالإضافة الى توظيفها صوراً من ثقافة بلدها بدءاً من لباس «الغاوتشي»، وهو السروال التقليدي الوطني الذي دأبت البطلة وزوجها على ارتدائه في أكثر من مناسبة في الرواية، ومروراً بشراب أو شاي «الماتة» الأرجنتيني الأشهر، وانتهاءً بلعبة الغميضة وتمسك مجتمعهم بها رغم ظهور الحداثة...

تحولت نصوص أريانا هارويكز إلى أعمال مسرحية قدمت على مسارح إسبانيا والأرجنتين والأوروغواي وغيرها من البلدان.

استلقيتُ على العشب، بين الأشجار الساقطة على الأرض، والشمس التي كانت تحرق راحة يدي جعلتني أشعر بأني أحمل سكيناً يمكنني أن أقطع بها، وبحركة خاطفة، وريد عنقي وأريق دمي. خلف أحد البيوت الذي بدا بين المنهار والمأهول أحسستُ بصوتَي ابني وزوجي تناهيا إليَّ. كلاهما عاريان. كلاهما يخوضان في الماء الذي يملأ حوض السباحة البلاستيكي الأزرق. ماء تصل درجة حرارته الى خمس وثلاثين. كان يوم أحد، عشية أحد أيام العطلة. كنت على مسافة خطوات منهما، متخفية بين الأدغال، كنت أتجسس عليهما. كيف يُعقل أن أكون أنا، المرأة الضعيفة والمعرضة للمرض دوماً التي تحلم بأن تمسك بسكين بيدها، هي أم وزوجة هذين الشخصين؟ ما الذي كنت أريد أن أفعله؟. خبأتُ نفسي وأنا أنخفض أكثر نحو الأرض. لا، لن أقتلهما. تركت السكين تهوي مني. وذهبت لأنشر الملابس على الحبل وكأن شيئاً لم يحدث. ضغطت بالمشبك جيداً على جوارب طفلي الصغير وزوجي، وعلى سروالهما وقمصانهما الداخلية. كنتُ أنظرُ إلى نفسي كما لو أني امرأة ساذجة وجاهلة تنشر الغسيل وتجفف يديها بتنورتها قبل دخولها إلى المطبخ.

لم ينتبها إليّ. كنت قد حققتُ نجاحاً بنشري الملابس على الحبل، ثم عدت لأستلقي ثانية بين جذوع الأشجار اليابسة. إنه موسم قطع الخشب الآن، استعداداً للموسم القادم. حيث يستعد الناس هنا للشتاء مثلما تستعد البهائم له. لا شيء يميزنا عنهم. أنا نفسي، على الرغم من كوني امرأة متعلمة وخريجة جامعية، إلا أني بهيمة أكثر من تلك الثعالب التي بقيت بلا مأوى، بوجوهها تلك المخضبة باللون الأحمر وبالعصي التي تخترق أفواهها عرضاً.

على بُعد بضعة أمتار، ضرب جاري فرانك، وهو الأخ الأكبر لسبعة أخوة، نفسه بطلق ناري اخترق مؤخرته في أعياد الميلاد الأخيرة. لا بدّ أنها كانت مفاجأة سارة للقبيلة التي يشكلها أبناؤه. إلا أن الرجل كان يتبع تقليداً عائلياً. فقد انتحر كل من جد جده ووالد جده وجده ووالده بطلق ناري أيضاً، ويمكن القول إن دوره قد حان. أما أنا؟. فلم أكن إلا امرأة عادية من عائلة عادية، امرأة غريبة الأطوار، خارجة عن المألوف، أم لولدٍ ولآخرٍ آتٍ في الطريق، ربما أحمله الآن في أحشائي، مَن يعلم!!. أدخلتُ يدي ببطء شديد في سروالي الداخلي لأتحسس بطني. وفكرتُ في أنني أنا المسؤولة عن الاهتمام بتربية ولدي. زوجي يناديني الآن كي نحتسي بعضاً من الجعة في التعريشة ويسأل إن كنت أريد الجعة سمراء اللون أم شقراء. يبدو أن طفلي الصغير تبرّز على نفسه، *ويجب عليَّ أن أذهب «لأشتري له كعكة بمناسبة مرور شهرٍ على ولادته»*. من المؤكد أن أمهات أخريات يصنعنَ الكعكة بأنفسهن. ستة أشهر، يقلن لي، ليست كمثل خمسة أو سبعة أشهر.

كلما أنظر إلى الطفل أتذكر زوجي وهو خلفي إذ سرعان ما بدأ يداعبني عندما خطر بباله أن يجذبني إليه كي يشرع بمضاجعتي في اللحظة الأخيرة. لو لم تحدث تلك الحركة، لو لم يقلبني باتجاهه، لو كنت أغلقت ساقيَّ،

لو كنت قد أمسكت بذكره، لما وجب عليَّ أن أذهب الآن إلى المخبز كي أشتري فطيرة بالكريمة والشوكولاته والشموع الصغيرة، فقد مرَّ الآن نصف عام. لقد اعتادت النساء الأخريات أن تقلن في لحظة الولادة، لا أتخيل حياتي من دونه بعد الآن، وكأنه كان موجوداً منذ الأزل. أُفٍ، أنا قادمة، حبيبي. أريد أن أصرخ إلّا أنني أهوي لأكون أكثر عمقاً في الأرض المتصدعة، أريد أن أفصح عن تذمري، أريد أن أزعق، لكني على خلاف ذلك أترك البعوض يلسعني ويتلذذ بجلدي ذي الطعم السكري.

تُعيد الشمس إليَّ انعكاس ضوء السكين الفضي ويصيبني بالعمى وهي بيدي. السماء حمراء، وبنفسجية ترتعد. أسمعهما وهما يبحثان عني، الصغير متبرز والزوج متعرٍ. ما - ما، تا- تا، كا- كا. إنه طفلي الصغير الذي يتكلم طوال الليل. كو- كو، نو- نو، با- با. إنهما هنا. أترك السكين على العشب المحترق، وأتمنى عندما أعود ثانية أن أجده وكأنه يبدو كمشرط، أو كريشة أو كدبوس. نهضت وأنا أشعر بالحرارة وبشيءٍ أثار انزعاجي بعد أن تنمَّل باطن فخذيَّ. شقراء أم داكنة تفضلينها حبيبتي؟. نحن جزء من أولئك الأزواج الذي يجعلونها كلمة تُقال على نحو آلي، «حبيبتي»، حتى عندما يمقت أحدهما الآخر، أقول: حبيبي، لا أريد أن أراك ثانية. ها قد أتيت، قلت. أنا امرأة مزيفة من الريف ترتدي تنورة حمراء مرقطة وشعرها متقصف الأطراف. آتني بها شقراء، قلت ذلك بلكنتي الخاصة بي أنا.

أنا امرأة تركت حياتها، أسنانها مسوسة، امرأة لم تعد تقرأ. اقرئي أيتها الحمقاء، أتحدث إلى نفسي، اقرئي ولو جملة واحدة كاملة. إننا الآن هنا، نحن الثلاثة معاً من أجل صورة عائلية، نحتفل بنخب السعادة من أجل طفلنا ونشرب الجعة. ابني على كرسيه الصغير يلوك ورقة. أدخلت يدي في فمه فصرخ. أخذ يعضني بلثته. يريد زوجي زرع شجرة كي تمنح الطفل حياة طويلة وأنا لا أعرف ما الذي أقوله له، أبتسم مثل البلهاء. أتراه يعلمُ بما يحدث لي؟. من بين جميع النساء الجميلات وأولئك اللاتي يتمتعن بالصحة في منطقتنا أتى لكي يوقع بي أنا. أنا حالة مرضية غير مألوفة، امرأة غريبة، امرأة كان يفترض أن تصنف على أنها لا سبيل لعلاجها. كم هو يوم مشبع بالرطوبة، أليس كذلك؟ يبدو أنها ستستمر معنا لبرهة، قال. كنت قد أفرغتُ قنينة الجعة في جوفي برشفات طويلة وأنا أتنفس من أنفي وما أريده بالضبط أن أكون ميتة وحسب.

أنا في غرفة ولدي الصغير المضاءة بضوء أزرق سماوي، أنظر إلى حلمتي ثديي اللتين تشبعانه في كل مرة أضعهما في فمه. زوجي، معتادة على مناداته على هذا النحو، يدخن سيجارته خارج البيت، غير أني أتمكن من سماع نفخات الدخان التي كان يطلقها بإيقاع منتظم، أُففففف، أففففف. الصغير يغصّ بحليبي الذي يرضعه، ألقيه على صدري ليتجشأ ذلك الهواء الذي يظل عالقاً في معدته، هواء حليبي وهواء صدري وهواء كل ما موجود بداخلي. بعد أن يتجشأ يخفَّ عليه الحِمل. يداه متدليتان والنعاس يثقل جفنيه، وأنفاسه خدرة. وضعته في الفراش وأرقدته وهو يحتضن شالي بينما رحت ألفّه به وأقول: إيسادورا دونكان. مَنْ يمتلك أيُّ حياة؟. في أي جسدٍ أنتِ؟.

لم أعد أسمع مجدداً صوت الـ«أُففففف» الذي يخرج مع دخان السيجارة من بين أسنان زوجي. رميت حفاظة طفلي التي كانت ثقيلة. مشيت نحو النافذة الكبيرة، دائماً ما ألعب مع فكرة الذهاب مباشرة نحو الزجاج وتقطيع كل جزء في جسمي، ودائماً ما أحاول عبور ظلي نفسه. كنت على وشك أن أرتطم، لكني توقفت، وسحبتها كي أفتحها.

في الخارج، كان يقف زوجي ويطلق دفقة من البول لونه كلون شراب المتة(*)، يمكنني رؤية القطرات الساخنة الصفراء وهي تسقط متناثرةعلى ألواح المرآب المعدنية وترسم شلالاً صغيراً. استدار وابتسم لي وهو يضع يده على ذكره المرتخي الذي يقطر بولاً، ثم أطفأ عقب السيجارة الذي كان في فمه في بركة البول التي تركها خلفه.

هلا ننظر إلى النجوم؟ لم أعرف البتة كيف أشرح له بأن النجوم لا تثير

*- شراب المتة: أو شراب عشبة المتة هو الشراب الرئيس في بلدان حوض نهر البلاتا (الباراغواي والأرجنتين والأوراغواي).

اهتمامي. وأن ما هو موجود في السماء لا يهمني، وأن جهاز التلسكوب الذي يحمله بصعوبة كي يصل به إلى نهاية الأرض، وعند منحدر الغابة لا يهمني. لا أريد أن أُعدَّ النجوم ولا أريد اكتشاف أشكالها ولا رؤية أيتها أكثر لمعاناً، ولا معرفة لماذا سميت بـ «الماريات الثلاث»، أو «عقد اللؤلؤ»، أو «اليد الطويلة». ثبتَّ «جوهرته» ذات الأرجل الثلاث في الأرض. زوجي رجل متحمس.

أترين عقد اللؤلؤ؟.. أجل حبيبي. انظري الى هذه النقاط المضيئة والمتلألئة، ألا ترغبين بالتهامها بمجرد النظر إليها؟ إنها صغيرة للغاية، ويجب التفكير بأنها في الحقيقة كتل كبيرة. كلا، فكرت، لا تعجبني التشوهات أياً كانت بصريةٌ أم صوتيةٌ أم حسيةٌ ولا حتى تلك المرتبطة بحاسة الشم أو الذهنية. لا تعجبني تلك الأشياء السوداء الموجودة في السماء. بالنسبة إليّ فإنها تجعلني مفعماً بالطاقة... قال: انظري إلى مجموعة الكواكب هذه وحاولي القفز من نجمة إلى أخرى، كأنك تعبرين جسراً صغيراً أعمدته غير ثابتة. وانظري إلى هذا الوجه، كأنه وجه هيكل عظمي. كان تعظيمه لهذه الأشياء يسبِّب لي الأذى. ثم أحاط كتفي بذراعه.

لم نحضن بعضنا منذ أشهر. ولم نمسك بأيدي بعض. إما نقود العربة أو نحمل الصغير. أترين الدب الأكبر والدب الأصغر؟. أجل، بالطبع، أقول ذلك وأنا أحضنه، إلّا أن عيني تتوقف عند التجويف المقعر الخالي من النجوم، عند غياب الضوء. ومقابل تحدي السماء المظلمة الممتدة فوقنا، في كل ليلة..... إنه مذنب!!، صرخ، ونحّى ذراعه عني من شدة انفعاله. لم أشاهده يمر. يجب أن تكوني منتبهةً. يمكنك مشاهدة المذنبات وحسب عندما تكون قريبة من الشمس إذ تمر لمدة قصيرة من الوقت. هل تمكنت من رؤية حركته الخاطفة؟ سأل منزعجاً. تبع ذلك فعل آخر، أشعل سيجارة، الموضوع هو أن تمعني النظر في السماء.

انظري هذه المجموعة من النجوم، لقد اتبعتُ خطاً متخيلاً. أترين؟، ليس الأمر أصعب من قراءة خارطة طريق باتجاهين وتتبع الخط المرسوم بالنقاط كي لا تنتهي بالسقوط في البحر.

بدا لي أن الطفل كان يبكي، لكنني كل ليلة أسمعه يبكي وبمجرد اقترابي منه يحل الصمت تماماً ليسود المكان كله، كأنه مقطعٌ صوتي مسجل لبكائه يتكرر وحده. لكنني أحياناً لا أسمع شيئاً.

أجلس الآن على الكنبة، غير بعيد من غرفته. أشاهد أحد برامج تبادل الأزواج، أو برنامج أفضل مربيات الأطفال، أو أضع الطلاء على أظافري، بينما يظهر زوجي الحبيب بسرواله الداخلي نصف النازل ليقول لي: «لماذا لا يتوقف عن البكاء؟، ماذا يريد؟، أنتِ أمه، عليكِ أن تعلمي ما الذي يريده». لا أعلم ما الذي يريده، أجيبه، لا أملك أدنى فكرة... ألا يشعرك القمر بالاسترخاء؟ اقتربي الى العدسة، انظري إلى القمر اليوم، لأنه لن يكون نفسه غداً، تلك الحُفر الرمادية الموجودة على سطحه تجعلني أرغب في أن ألتهمه أو أن أدخنه مثل سيجارة.

نظرت إلى القمر، ولكني في الحقيقة تذكرت صوت بكاء ابني. جسمي يتجزأ، نفد صبره لأن الطفل توقف عن البكاء. النصائح التي أسدتها لي تلك الشابة مساعدة الخدمة الاجتماعية المنزلية عندما اتصلت بها حماتي مذعورة: «إذا بكى طفلك طويلاً بطريقة تستنفد ما تملكينه من قوة أو على وشك أن تفقدي السيطرة على نفسكِ، سارعي إلى الهرب. احملي الطفل وأعطِه إلى شخص آخر واذهبي إلى مكان يمكنك أن تستعيدي فيه شعورك وهدوءك. أما إذا حدث العكس، ووجدت نفسك وحيدة، ولا توجد فرصة إعطائه لشخص آخر، اهربي أيضاً. اتركي الصغير في مكان آمن وابتعدي عنه لبضعة أمتار...

لا بدّ من أن نساء السانتيغوادوراس يَعشنَ في القرى القريبة، أولئك القرويات اللاتي يعتقدن بوجود الأرواح سوف يصلين من أجل علاج

الآلام التي تعتصر بطن زوجك ومن أجل بكاء طفلك الفجائي بالثمن نفسه. تمنيتُ أن أذهب إلى كوكب أبولو. اتسمعينني؟ أو في أية مهمة إلى الفضاء الخارجي... ، هل تسمعينني؟.. في أبولو كي أنظر الى الأرض وهي تبتعد. أششششش، هل هو يبكي؟. ماذا تقصدين، هل هو يبكي؟ أنا أتحدث إليكِ عن القمر. القمر مثلكِ يروق له أن يختبئ، قال. لكني كنت أفكر في دوراني وأنا أحمل الطفل بين ذراعيَّ لألفَّ به لساعات وساعات وأنا أتحرك بعدة أشكال راقصة متنقلة من جزعي إلى بكائه، ومن بكائه الى جزعي. أفكر في ذلك الحيوان المفترس، في ابني، أفكر في ذلك، في الشخص الآخر وهو يحمل قلبك إلى الأبد. شعر بأنه بلغ مداه من الإنهاك، أغلق التلسكوب، ثم حمله الى المرآب ليحتفظ به مع بقية العدة، التراكتور الذي يملكه حماي والقارب الصغير ومجذافيه.

لم يكن طفلي الصغير أو «البيبيتو» كما يسميه حموايَ، يبكي، كان الصمت الذي يسود غرفته كبيراً حيث كان عليّ أن المسه كي أتأكد ما إذا كان على قيد الحياة أم لا. عدت عندئذٍ إلى الصالة ذات الباب الزجاجي الكبير، سرتُ يميناً صوب انعكاس الضوء، وبالضبط قبل أن أرتطم به، فتحته. كان زوجي يدخن سيجارة أخرى. كان قد بدأ بعلبة ثانية بينما كان يشتم القمر ويشتمني على حدٍّ سواء. نظرت إلى الدخان وهو يحيط به وأصبت بالذعر. أكثر الأشياء العدوانية التي قالها لي في غضون سبعة أعوام كان: «اذهبي كي تجري فحصاً لنفسك».

أخبرته: «أنت رجلٌ ميت»، حدث ذلك بعد مضي شهر واحد على علاقتنا. ثم بقينا واقفين، الواحد جنب الآخر على الثلج، كان ماء العشب يغسلنا، وأقدامنا مبللة. الأرض استحالت إلى حُفر نبشتها المناجذ آكلة النمل. لم يعد ينظر إلى السماء، ولا أنا، بالطبع. ربما بدا لي بأن نجماً مذنّباً قد مرَّ من فوقنا، خاطفاً مثل كل شيء. ذهب كل منا بعد ذلك لينام في فراشه. اعتدت على النوم وحيدة وخرقاء في هذا البيت الذي كان في ما مضى فندقاً صغيراً، وأياً كان ما يعنيه ذلك. كل شيء يمكنه أن يكوّن عائلة. قلت ذلك فجأة وأنا أترك عينيَّ تتساءلان.

عندما يذهب زوجي في رحلة يتبعه في كل لحظة صمت قبيلة من الشياطين تتسرب إليه من رأسي. ثمة فأرة تقفز على السطح الشفاف. المجنونة، تبدو مستمتعة. سوف أذهب لأرى ما إذا كان الصغير يتنفس في كل دقيقة. ألمسه كي أرى ردة فعله. أزيحُ عنه دثاره. أغيّر وضعية نومه. أوجّه الضوء عليه. أحمله. إنه ما يزال في مرحلة خطر الموت المفاجئ التي قد تصيب الأطفال الرضَّع. بعد ذلك أمسك بزمام نفسي، وأعدُّ شطيرة كي أتناولها وأبقى جالسة بمواجهة التلفاز. لكن سرعان ما يأتي صوت «الآخخخ.. آخخخ» الذي يصدره البوم، كان ذلك الصوت المثير غير الإرادي والأيروتيكي يخيفني. أطفئ التلفاز. أتخيل الحيوانات في حفلة ماجنة، أيلٌ وجرذ وخنزير بري. أضحك، لكن فجأة يشعرني هذا المزيج الغريب من المخلوقات بالخوف. تلك الأرجل والأجنحة والذيول والحراشف التي تتسابق نحو اللذة. كيف لخنزير بري أن يمارس الحب؟. أسمع مجدداً صوت «الآخخخ.. آخخخ» يبدو وكأنه صوت رجل يُشنق، «آخخخخ.. آخخخخ» أو كأنه صوت غرغرة أجشٍّ لهرٍّ ما لكنه يصدر من منقار البوم المحدب. أشاهد من بعيد ومن خلال زجاج باب الصالة الكبير البيت المتنقل على سيارة. لا أعلم لماذا تركنا هذا

البيت المتنقل المسحور أكثر من مرة في منتصف الطريق. يبدو صدئاً، إلا أن زوجي يقول إنه ما يزال بإمكانه أن يتحرك لبضعة كيلومترات وأن يقلنا نحن الثلاثة إلى البحر.

أخشى أن ينقلب ويقتل الطفل. يُقتل الطفل بيننا نحن الاثنين. وما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة صباحاً، يحدث غالباً أسوأ ما في الأمر، لكن بعد ذلك تصبح الأمور أخف وطأة، إذ أعدُّ شيئاً ما لنفسي كي أتناوله. ولكن بين الثانية والرابعة تتولد لدي الرغبة في أن أختال في مشيتي. أنظر إلى مزلاج الباب التي تفتح لوحدها. وأجد نفسي ذاهبة الى الغابة تاركة السيارة الصغيرة تنحدر الى الأسفل. «آخخخ.. آخخخ»، حمداً لله يرن الهاتف. حبيبتي، إلى أين وصلت؟. هل أنت على مسافة مئتين وثمانين كيلومتراً؟. آه، هل تناولتِ وجبة طعام في ماك دونالدز؟، ثم،هل ملأتِ السيارة بالبنزين؟ حسنٌ، اتصلي بي من المحطة التالية. قبلة. قبلة. كانت الاتصالات المتكررة والقصيرة وأنا في الطريق تثير جنوني.

أعود لأرى ما إذا كان طفلي نائماً. أضع له دماه وألعابه على حسب التسلسل. هل سيذهب زوجي العزيز الى أحد الفنادق الرخيصة برفقة إحدى عاملات خدمة الأوتوماك للبيع من النوافذ؟. أصل وأحثّ خطاي نحو البيت. سوف أتصفح شيئاً ما. تمتلئ مكتبتي بكتب غير مقروءة اشتريتها كي أقرأها في فترة الحمل. وفجأة أُصبحُ غير ذات نفع في الفراش، هو يعلم بذلك، لكني أقول ذلك من لا شيء. ولهذا السبب قد يكون ذاهباً الى أحد الفنادق الموجودة على أحد الطرق المتقشرة، وبجدران متقشرة كذلك وهو برفقة تلك العاملة غير المتعلمة التي تتحرك وتقفز عليه أفضل مني.

إذا كان الموضوع يتعلق بي، فأنا يعجبني التفكير في ممارسة الحب، لكن ليس في ممارسته. لطلما كنت مجدية على المستوى النظري، إلا أني كنت أستهجن التطبيق. ولهذا السبب تراني لا أجيد قيادة السيارة، لكني أحفظ عن ظهر قلب قوانين المرور. أحاول التركيز في أحد كتب فرجينيا وولف، كان هدية من زوجي، لكن ثديي يمتلآن بمزيد من الحليب. لماذا ينام لأوقات طويلة؟ لماذا لا يعود إلى نشاطه؟ موت طفل هو خيال علمي. سوف أذهب لرؤيته. أخرج من البيت، تمر سيارة فيراري حمراء بسرعة كبيرة. أبقى واقفة في الباب الرئيس والهاتف الخلوي في يدي. يقولون بأن الموجات التي تصدر عنه تتسبب في السرطان. يدي في مرحلتها النهائية من المرض. من المفروض أن يتصل بي الآن، يفعل ذلك دوماً عندما يصل إلى المحطة التالية. ميليسا، الفتاة العزباء التي لديها ولدان، والتي تعيش في الجوار نافذة بيتها مفتوحة وضوؤه مشتعل. يبدو أنها تبكي أو تئنّ. تكسب عيشها وهي تكشف عن مؤخرتها. رجل ما في مكان ما سوف يكتب إليها عبر محادثة آنية عبر الإنترنت: «يا إلهي، أيُّ شعور باللّذة هذا!!». سوف يدفع أجراً أكبر كي يستمر في النظر الى مفرق

مؤخرتها. لماذا لا يرن هاتفي!. سيرغب الزبون في أن يلعق مؤخرتها، وبينما تدعك جسدها. يلعق الرجل الشاشة وهو في شقته التي تقع في مركز المدينة.

أحدّق في الكلب الصغير الهجين المربوط في الجهة المقابلة، يخرج لي لسانه. يرن الهاتف: حبيبي. مرحباً، مرحباً، هل تتناول الآن قهوة مصنوعة في الماكينة؟. ماذا أكلت؟ حسنٌ، أنتظرك، سأبقى مستيقظة. وأنا أيضاً. تشاو. قبلة. قبلة. ها قد اتصل. استخدمت النبرة اللازمة كي أتحدث معه. سألته على ما دأبت أن أسأله عنه دوماً. ماذا أكلت؟. لماذا نسأل نحن النساء عما يأكل أزواجنا من طعام؟ أية قذارة نريد أن نكتشف ونحن نسأل عما يأكلون، وإنْ ضاجعوا امرأة أخرى؟وهل يشعرون بالسعادة معنا؟ أو عما يفكرون في هجرنا إذا ما قالوا بأنهم سيذهبون لتناول الآيس كريم؟. سرتُ وأنا أحاول أن أتفادى نبات القرّاص ثم انحدرت إلى الغابة. في لحظةٍ ما يظهر أيلٌ ظل ينظرُ إليَّ بطريقة وحشية وكأنه لم ينظر إلى شيءٍ من قبل. وددتُ لو عانقته، لو كان ذلك ممكناً.

قرأتُ بعد ذلك بضع صفحات من الكتاب. أصبحتُ أكثر بطأً في قراءة صفحة واحدة بعد فترة حملي، ثم استسلمت للنوم. ولكن ما هذه التنهدات المتقطعة التي تشبه أنفاساً صغيرة!!. أتراها جارتنا بشعرها المصبوغ باللون الأحمر تعرض ثقبها لزبون آخر أم إنها أنفاس الكلب الذي يشعر بحرارة الإثارة؟. انتظار زوجي ما هو إلّا عقوبة بدنية. يجب أن أُعدَّ له شيئاً يأكله حين يصل، لكن لا أعلم. يقص دوماً الحكاية نفسها. في المرة التي أتى فيها حمواي كي يمضيا النهار معنا كنت أنا من أعدَّ طعام الغداء. كانت وجبة الطعام تتكون من: كرات الأرز مع الأرز. ضحك الجميع مني. ليسَ الجميع، طفلي الصغير لا، لم يضحك. إذ حدث ذلك قبل أن يأتي الطفل إلى الوجود، جميعهم ضحكوا بقهقهات مرتفعة.

بعض الأحيان أشعر بأنني أريد أن أبكي كي أتمكن من التسلل الى فراشه دون أن أرتكب خطأً لأكون بجانبه وحسب وأفرغ ما بثديي. في

الأيام التي لا يكون فيها زوجي موجوداً أصبح عدوانية في سلوكي. أمسكُ بالعدوانية مع الضعفاء، كتلك الممرضة البدينة التي تأتي لتزرق المريض الذي يسكن بجوار بيتي بالحقن المضادة للتجلط. تأتي السيدة بسيارتها البيضاء الصغيرة كل صباح عند الساعة السابعة بالضبط. لم أشاهدها أبداً تفعل حركة مختلفة. تطفئ المحرك. تترجل من السيارة وتسير باتجاه البيت، مثلما يمكن أن يفعله تماماً موظفو القطاع الحكومي أو تفعله ممرضات الخدمات المنزلية في مكان مفقود كهذا. ألقيتُ اليوم النفايات في الموعد المحدد ثم رمقتها بنظرة اشمئزاز عندما مرّت من أمامي. لكنها ألقت عليَّ التحية بطريقة شخص متحضر فرددت عليها وأنا أدمدم. ثم رفعت نبرة صوتي أمامها وأنا أتقدم نحوها بضع خطوات، كنت متهيئة لبدء مشاجرة باليدين. أصابها الفزع. مسكينة هذه السيدة البدينة، من المؤكد أنها ظنت بأنني قادمة من بلاد تعيش حرباً. كان شعري أشعثَ. وكنت أرتدي أحد قمصان زوجي، القميص القطني الذي اعتاد أن يرتديه عندما يلعب كرة السلة، وقد منحني هيئة لم أكن أمتلكها. من المؤكد أنها فكرت بأني سأحطم لها أسنانها بضربة من رأسي. عجلت المرأة الفَزِعة من خطواتها كي تدخل بسرعة إلى بيت المريض، تدعك له جسمه بالكحول المطهرة وبعدها تعطيه الحقنة.

أتصرف بغطرسة مع الكاشيرات اللاتي يعملن في السوبر ماركت وكذلك مع الفتيات موزعات فطائر البيتزا وطلاء الأظافر، أصرخ بهن علانيةً. يروق لي أن أتسبّب بالفضائح للآخرين وإذلالهم والإثبات كم أنهم خائفون. لماذا هم على هذا النحو، جبناء كما الدجاج؟؟ كيف يحدث أن لا ينقضَّ عليَّ أحدهم ويضربني بالعصا؟، كيف يحدث أن لا يتصل أحدهم كي يبعدوني عنهم؟. من الواضح للغاية أنهم على حق، فمن تبحث عن المشكلات هي أنا، هم يقومون بعملهم ولا يتسببون بإزعاج أحد.

في الأيام التي يخرج فيها زوجي في رحلة أضع دمية بلاستيكية لطفل صغير في المقعد الخلفي للسيارة وأبقيها فيه الصيف بأكمله. يثير متعتي رؤية أعداد الناس المجتمعة في الجوار وكذلك الموظفين الحكوميين وهم يشعرون بالذعر. ويعجبني مشاهدة ردة الفعل التي يبديها المواطنون الصالحون وبعض الأبطال وهم يحاولون تحطيم الزجاج لإنقاذ كائن من الموت بالاختناق. أشعر بالمتعة وأنا أنظر إلى سيارة الإسعاف وهي تصل إلى القرية وتطلق صفاراتها. الكلُّ أغبياء. وإذا ما شئت ترك طفلي الصغير في السيارة تحت أربعين درجة من التأثير الحراري لفعلت. ولا تخبروني بأن ذلك مخالف للقانون. لو أردت اختيار مخالفة القانون، لو أردت أن أصبح واحدة من بين الكثيرات ممن يجمدن أجنتهن لفعلت. لو أردت الذهاب إلى السجن والبقاء عشرين عاماً فيه أو الهرب منه، فهو أمر محتمل كذلك.

قبل أيام روت جارتي الصغيرة الشقراء للممرضة بأن ثمة رجلاً في القرية، لكن في الجانب الآخر من النهر، اغتصب طفلةً صغيرة، ثم أخذ الحديث مجراه بينهما وكأن شيئاً لم يحدث. أنا وحدي من اخترت بلدة الحيوانات هذه كي أربي ابني فيها، هذه البلدة المليئة بمحبي موسيقى البانك روك، ومتعاطي المخدرات، ممن تظهر عليهم الكدمات هنا

وهناك نتيجة سقوطهم العرضي المتكرر، وكذلك مليئة بالأمكنة العامة لتحطيم الذات تلك.

أعتقد أنه إذا ما ضربك زوجكِ أو أبوك، عليك أن تتكفلي بالأمر. يجب أن تصرخي بأعلى صوتك بوجوههم بدلاً من أن تقولي لهم طاب يومكم. سفلة. الهذر أو بالأحرى حتى «الأنا» التي اعتدت عليها أتت أكلها. سمعت بعد ذلك صوت محرك سيارة زوجي. إنه هو نفسه الآن في البوابة مع ابتسامة، ها هو يدخل السيارة... يناور متفادياً حجارة ما. أما أنا فأتحرك متنقلة من جانب إلى آخر، نفد صبري لكي يخرج من السيارة ويقبلني، ولكي أستشعر رائحة التبغ في شاربه. تبادلنا القبلات، مثل سائر الأزواج بلا كلام. دخلنا، ترك أرضاً الكيس الممتلئ بالبضاعة التي لا تُباع مع بعض النماذج. كدّس بشكل جيد الصناديق الصغيرة وأخذ يريني نقوداً ورقية من فئة العشرة، أربعة آلاف ورقة من فئة العشرة. واوو، يا للمفاجأة. أساعده في خلع سترته. أسخّن له وجبة طعامه الليلية الثانية في المايكرويف الذي بدأ يخرج منه الشرر. غفلت عن الطعام، واكتويت عندما أمسكت بالصحن. جلسنا إلى المائدة. تبادلنا النظرات وتحدثنا، إلا أن كل ذلك وبين هلالين، ليس بتبادل للنظرات ولا بأحاديث. بعد لحظة شاهدته وهو يخرج. قال بأنه يريد أن يتبول في الخارج، بينما هو بوسعه التبول في البيت.

إنه مدمن على الهواء الطلق. لا أعلم ما الذي يحدث له مع تلك السماء العاهر. تروق له عندما تكون زرقاء ويكون سعيداً عندما تخلو من الغيوم. أما بالنسبة إلي، فالشيء نفسه يحدث لي عندما أكون في الخلاء أو مختبئة في خزانة كبيرة للملابس. في النهاية أفرغ داخل طفلي الصغيرما بثديي الأيمن وبعده الأيسر.

يجلس زوجي لمشاهدة فيلم للرسوم المتحركة كي يهدئ رأسه. أذهب لملاطفته وأنا أمسح بيديّ على جسمه فينزعج لأني قطعت عليه تثاؤبه. بعدها نطفئ الأضواء، ضوء تلو ضوء في بيتنا الذي مازالت تفوح

منه رائحة الجلد. كنت في حالة ماراثونية من الإثارة عندما عاد صوت «الآخخخ.. آخخخ». أفقدني تركيزي.. «الآخخخ» خرجت كي أبلل وجهي، ثم اصطدته. كان يشعره هو أيضاً بالإثارة. وسرعان ما تبادل كلانا نظرة معينة، ثم عاد كل واحد منا إلى شأنه.

آخر ذكرى لي عن فترة الحمل كانت في أعياد الميلاد، بحضور جميع أفراد عائلة زوجي الذين قدموا من بلدة أصبحت هي الأخرى مفقودة مثل بلدتنا هذه. كنت أشعر بألم وانقباضات في معدتي، وكان ابني يتحرك في جوفي بسرعة أقل من السرعة المعتادة. أخذوا يضعون أيديهم على بطني ويتحسسونها وهم يأملون أن لا يضطروا بعدها إلى الخروج مهرولين بي إلى المشفى كي ألد، ويأملون أن يكملوا تناول الديك الرومي المطبوخ مع التفاح.

كنت في الصالة أقف مقابل موقد النار، لا أتذكر أني فعلت شيئاً غريباً يشي بشعوري باليأس. فكرتُ أني منذ لحظة كنت أحتوي كل شيء بطريقة تدريجية ولكن متمايلة على نحو بسيط عندما دُعيت فجأة إلى الجلوس وتناول شيء ما بارد. لا أعلم منذ متى يصبح وضع المؤخرة في الكرسي وتناول قليل من الماء أمرٌ يهدد الرغبة بالموت. شكراً جدتي، أنا بخير لا تزعجي نفسك، إلا أنهم سرعان ما أجلسوني في الكرسي وسرعان ما جلبوا لي ماءً بارداً. سوف يجعلني هذا الجمع من الناس الذي يحيطون بي أفقد كل شيء.

تمنيت أن يكون إيغون شيلي ولوسيان فرويد وفرانسيس بيكون جيراني الأقربين وبهذا يمكن لابني أن يتربى ويطور ذاته ويصبح على درجة من الثقافة وهو يرى العالم الذي أوتي به إليه على أنه شيء أكبر متعة من فتح تلك الكوة في السقوف حيث لا تُرى الأشياء. وفيما تسرب جميع من تبقى إلى الغرف لتناول طعامهم حتى سمعت حماي وهو يقطع العشب تحت وابل الثلج المتساقط ويقود جرّاره الجديد الأخضر، فكرت، لو كان بإمكاني قتل جميع أفراد عائلتي كي أتمكن من أنْ أبقى وحدي

لحظة مع غلين غولد، لفعلت. بعد ذلك شاهدته وهو جالس خلف مكتبه يراجع وصولات المشتريات الشهرية من السوبر ماركت. كان يعيد قراءة سعر كل منتج ويدققه في الحاسبة ليرى ما إذا كان السعر صحيحاً. لم يعد المصباح المنضدي مضاءً بعد أن انتهى من عمل حساباته في دفتر مصروفاته الشهري.

تناولنا العشاء مجدداً سويةً، أستطيع أن أتذكر الآن أنني قد شاهدت له صورة السلويت المتعبة التي يظهر فيها رجلاً عادياً ويظن نفسه أنه استثنائي. ثم قام ليغسل طقم أسنانه وذهب ليضطجع. هل يمكن أن يكون هذا يوماً يعيشه المرء؟ وهل يعدُّ هذا بشراً يعيش الآن يوماً من حياته؟. ثمة بندقية في غرفته، بالإضافة إلى عدد من الخراطيش التي وضعت على منضدته المضاءة. «أفكر دوماً أنني لن أقتل في فراشي. وإن سمعتُ جلبة ما أحشو بندقيتي وأنزل مسرعاً إلى الأسفل. وإن تحدث بعض المشكلات، أطلق النار على القدمين»، كان يتحدث وهو يشفط لعابه العالق دوماً في حنجرته. كانت حماتي تنظر إليَّ بحزن طوال اليوم. إذ لا تعرف ماذا يمكنها أن تفعل من أجلي بعد عندما طرقت بابي عند الفجر ودخلت خائفة وهي تحمل لي قدحاً آخر من الماء وحبة دواء صغيرة بلون أخضر وأبيض. شكراً، قلت لها. وما إنْ غادرت الغرفة حتى قذفت بالحبة بسرعة إلى الموقد.

لا أحب أن أصاب بآثارٍ جانبية، ولا أحب العقاقير المضادة للاكتئاب. الشيء الوحيد الذي كان يمكنني فعله في حالات كهذه هو أن أحتضن بطني وأنتظر. كان الصغير ينام بداخلي، ملفوفاً بأحشائي، كان غريباً عني. لم يساعدني هو الآخر في تلك الأيام. وما إن انتهى طقس الكؤوس المرفوعة والأمنيات الطيبة، حتى حاولت التهرب من نظرات زوجي الذي كان في الشرفة يرمي السهام المريشة كي تصيب الهدف. كان في كل مرة يخطئ فيها الهدف يغضب ويقول أووووه! وبعدما اجتزت صالة ورق الهدايا الصغار ومضخات رغوة الاحتفالات، اقتربت من كوم الملابس المخصصة لطفلي غير المولود، لكني لم أتمكن من أخذ قسط من الراحة أبداً. بل على العكس، ذهبت إلى الغابة، كنت أمشي وقد استنفدت جميع

قواي بسبب التقلصات التي تعتصر بطني. عاد الألم الآن من جديد كان يقذف بي إلى الأعلى مثل كلب. كانت الأسئلة التي كانوا يوجهونها لي في عيد الميلاد ذاك تخترقني بقوة تفوق قوة إطلاقات النار التي يطلقها الصيادون. هل كنت تبحثين عن عروض للعمل؟ هل تفكران بوضع الولد في الحضانة؟ هل تتمكنان من دفع الضرائب والتأمين الاجتماعي؟ هل تحتاجان إلى مساعدة؟. لقد وصلت الآن. في الحالات الطارئة فقط أنحدر إلى هنا.

كيف يمكن أن يكون حماي قد أمضى مساء الـ 24 من كانون الأول وهو يعيدُ قراءة وصولات المشتريات وأن يضع البندقية تحت مخدته. كيف تتمكن حماتي من التحدث بصوت منخفض، ومن المشي بخطوات قصيرة، وأن تكون متواضعة للغاية وهي تقدم حبوب «البروزاك» المهدئة إلى أم مستقبلية. كيف يستطيع حماي وحماتي النوم وسط الشراشف والمرتبة واللحاف نفسه ووسط الجدران المغلفة بالورق نفسها طوال خمسين عاماً. ترك زوجي لعب السهام المريشة وخرج للبحث عني في نطاق الغابة. تقدمت ثم دخلت بين مجموعة من جذوع الأشجار وبراعم النباتات الصغيرة.

أنا واحدة. وجسدي هو جسدان. بين خيوط الدخان الدقيقة كنت أشاهد مجموعة صغيرة من الغجر المهمشين يخيّمون قرب البركة المتجمدة والمكسوة بالثلج في أحد الكرفانات الجوالة وغير المستقر مثل بيتنا تماماً. كنت أنظر إليهم وهم يدخنون ويضحكون هناك بلغة أخرى ويفترشون الثلج ليجلسوا.

في الصباح يتذمر حماي وحماتي وهما يتعثران بقناني الجعة الصغيرة وسرنجات الحقن الملقاة على الأرض. في مكان بعيد توجد مناحل العسل التي يتربى فيها النحل القاتل وثمة طريق يؤدي إلى أحد الطرق السريعة الكبيرة. بعد المطر الغزير تخرج كميات كبيرة من الفطر التي أنظر إليها الآن وقد تعفنت. تمنيت أن تكون أول كلمة ينطقها ابني كلمة جميلة. تمنيت ذلك أكثر من حصوله على ضمانه الاجتماعي. وإن لم يحدث ذلك فمن الأجدى له أن لا يتكلم. ليقل «مغنوليا»، ليقل «رحمة»، وليس بابا أو ماما، وليس ماء. ليقل هذياناً. وجدني زوجي وأنا أقفز على بركة ماء. أحسستُ بالخجل، فأخبرته أنني كنت بحالٍ أفضل وعدت على وجه السرعة إلى المنزل.

أول ذكرى لي مع الطفل وهو خارج جسمي كانت في رواق بيتي. هبط الليل وبدأ النزول من الفراش، وهزّ الطفل، وحالة الغضب التي تفسد الأمر. كنت أشعر بالخوف خشية أن أتسبب بالأذى لطفلي الوليد. لذلك حاولت البقاء في الكرسي المصنوع من خشب أشجار الصفصاف وأنا أحصي أعداد حشرات الحباب التي تضيء في الظلام أو أحسب عدد المرات التي يُسمع فيها صراخ أحد الحيوانات. ومن غير أن أذهب لمشاركتهم الجلوس إلى المائدة، عندما ينادون علي لتناول طعام الغداء أو حتى تناول ما تبقى من حفل أعياد الميلاد، أو حتى من غير أن أذهب للجلوس مقابل موقد النار عندما تجتمع العائلة كما يحدث الآن. كنت أسمع الأصوات التي تحدثها الشوكات وهي تدخل أفواههم، والأصوات التي تصدر منهم وهم يبتلعون الطعام فيما أفقد شعوري وصوابي، مع ذلك لم أكن حتى لأعلم إن كان ما يحدث حقيقياً. لا أحد كان يعلم بذلك. حتى أنا، وحتى زوجي. ومن المؤكد لا أحد من الأطباء يعلم.

حماتي مدمنة على الأطباء، حينما تعطس تكون مستعدة للاتصال بأحدهم. تحبهم، تعبدهم. أجزم بأنها تبلل نفسها حتى عندما تقول كلمة «طبيب». لا أعلم ما الذي تعتقد أنها يمكن أن تفعل إزاء بنكرياس ممزق. بدأ عقلي ينهار، فقدته على الشاطئ. عندما أدخل، متفضلة، إلى البيت لا بد أن يكون الطعام الموجود على سطح خزانة المطبخ قد أصبح بارداً وستكون هناك ملاحظة كُتبت بخط اليد «أتمنى لكِ عشاءً لذيذاً، أحبك».

في الساعات المتأخرة من الليل يجتاحني إحساس كبير من خوف متراكم إذ يمكنني تناول الخمر حتى أصاب بسكتة قلبية. أحدثُ نفسي بذلك ولكن ذلك غير صحيح. إذ لا يمكنني أن أنزل كي أتناول حتى نصف قنينة من الخمر. تلك هي أيامي، غصةٌ مستمرة. هلاكٌ بطيء. تبدأ الآن حماتي بتقديم قطع الحلويات، تكشط الملعقة عمق الصحن. تضع الإجاص في الكونياك أو في الشوكولاته. لم يعد الآخرون يتساءلون لماذا لا أجلس معهم. لماذا لم أعد أتشارك الفراش والمائدة والحمام. أخرج أحياناً كي أركل بقدمي في الهواء لبضع مرات وعلى الرغم من أنني أكتشفت أن حماي وحماتي يتجسسان عليَّ من النافذة، إلا أنني كنت مستمرة. الآن أحصيت ثلاث حشرات من حشرة الحباب التي تضيء الظلام. من هنا، من خارج البيت انتبهت ولهذا السبب لن أدخل. الموت حاضر في النار، في السجادة، في الستائر، في الهواء المنغلق على الأثاث الريفي، وفي أطقم الطعام الفضية. وفي الجرة الخالية من الزهور. الموت يترشح من مظلات المطر المتكدسة عند باب البيت. أستلقي ثم أنهض لمرات عديدة حتى إني لم أعد أعلم كم مرة نهضت وكم مرة استلقيت. الطفل شديد الصغر ضائع بين الملايات، يبدو كأنه سمكة صغيرة. جميعهم كانوا يرتدون ملابس سوداء، حتى الصغار.

تخيفني هذه الليلة، سوف أضع موسيقى غلين غلود الهادئة، لكن الموسيقى الكلاسيكية الهادئة تنيم زوجي، إنها تنهيني حبيبتي، قال. موتُ حماي بينما كان نائماً لم يفعل سوى أن يزيد من سوء حالي. أشعر بأن هذه السماء كأنها ستار مخملي متين لا يتيح المجال للنظر. لقد حاولت النظر إليها آلاف المرات وكل مرة كانت تنغلق أكثر. كلماته الأخيرة ذات الروح الملحمية التافهة التي قالها قبل أن يذهب لينام: «سيتبع حفيدي خطاي» لم تساعدنا هي الأخرى في التفوه بأي شيء.

وقفت مقابل تابوته وتراءت لي بوضوح كبير صورة أسنانه. كانت أسنانه تؤلمه دوماً أو إنه كان يمسكُ بها وينظفها بالفرشاة الصغيرة بينما يتحدث إليك. قليل من الناس كانوا يجلسون في الخلف وهم يذرفون الدموع. وآخرون كانوا يجلسون وهم ملتزمون باحترام مسافة حذرة مع التابوت الذي وُضِع فيه. لقد قضي الأمر. ها قد أصبح رجلاً ميتاً الآن. كان ذكياً. كأنه حصان يقطع المسافات ويجول في البلدة لكن لا أحد يتذكر حتى وقع حوافره. أحضن زوجي بينما يبتسم طفلي الوليد وهو ينظر إلى التابوت.

فكرت في حماتي وهي تفتح البيت لتهويته. وهي ترمي بنظارات زوجها الحبيب. وهي تشم رائحته العالقة في متكأ كرسيه الهزاز حيث كان يغفو. حماتي العزيزة. تطبخ لنفسها منذ الآن وصاعداً بالمقلايات نفسها التي كانت تعد له فيها البيض المقلي والشوفان. أهدت جوارب زوجها إلى جيرانها، الذين لهم المقاس ذاته. وبينما كانوا ينزلونه في التابوت رأيتها وهي ذاهبة من الحمام إلى الفراش. أسمعه يتحدث، يسعل ويشخر. قميص نومها الطويل يسمح برؤية حلمتي ثدييها الزرقاوين، الداكنتين، وكعبي قدميها الضخمين. حماتي تغطي فمها بيدها وتحضن الوعاء الذي كان يتبول به زوجها. بعد ذلك، حماتي بحركة بطيئة، عجوز تهتز عند سحبها للباب لغلقه أو عند غلقها كوة السقف. تحكي هي للعائلة أن حُبها قبل وفاته أمسك بها وضغط على يدها بشدة، إلا أن الطبيب أخبرها فيما بعد أنه فعل انعكاسي وحسب. كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها أني قريبة منها.

أتكلم الآن على أني هو. على أني هو نفسه، رحت أفكر فيها ويجف حلقي. لا أعرف ما الذي ستفعله وهي مرمية مثل قطعة نفايات بين الأعشاب الكثيفة والناعمة، ووجهها إلى السماء. ترتدي القميص القطني نفسه الذي كانت ترتديه بالأمس. وردي بلا أكمام. البنطلون الأسود نفسه الذي كانت ترتديه الأسبوع الماضي. إنه يرى كل شيء: أعرف كل قطعة من الملابس موجودة في خزانتها، يحدث نفسه. تلبس حذاءها البلاستيكي ذا الرقبة حتى لو لم يكن الجو ماطراً. تلبس التنورات التي تشبه الأجراس والتي تُبرز وركها الذي لم يعد بائناً بعد أن ارتدت الشورت الجينز. تعقد شعرها إلى الأعلى على شكل كعكة كأنها تقلد راقصة كلاسيكية توشك أن تخرج على خشبة المسرح.

أعرف وضعيات جلوسها. تجلس وهي محنية ورأسها يتدلى بين ساقيها. أو مستلقية، مثل الآن، كما لو أن أحداً ألقى بها هنا ونسي أمرها. تأكل بيدها مباشرة من الصحن، لكن فقط عندما تكون لوحدها. تضع عدداً من شالاتها وتشبكها حول رقبتها. لتبدو كأنها امرأة تلف عقداً معدنياً حول عنقها. يمكن رؤية أشرطة حمالات صديريتها. لا أريد أن أشمها ولا أريد أن أخبرها بأنها تتنفس بقوة. ولا أعلم كيف تشعر إذا لمسوا ظهرها. لا أمتلك تفاصيل عن ذلك.

المرة التي شعرتُ فيها بأني قريب منها للغاية كانت عندما قدت الدراجة متوجهاً صوبها مقابل الباب الخارجي، لكن صوت الدراجة أثار فزعها فكان عليَّ أن أذهب مسرعاً. ربما تكون قد شاهدتني؟، هل فكرت بي!! كانت عيناها أكثر ما يثير فضولي. ليس واضحاً تماماً بأي لونٍ كانتا: سوف أزعم أنهما رماديتان، لكنهما تظهران أحياناً أقرب إلى لون التبن. كيف سيكون الأمر إذا ركزت عينيها بعيني. أجل، يمكنني التأكيد على أنها تمتلك كتفين كبيرين وأصابع دقيقة، وتكاد لا تضحك، وأن خطواتها

التي تخطوها عند المشي واسعة إذ تبدو وكأنها في مارش عسكري. إنها لا تدخن أو على الأقل لم أرها تدخن البتة. ولا تستمع إلى الموسيقى، أو على الأقل ليس في أوقات المساء المتأخرة وقبل أن يحل الظلام عندما أتوقف على أحد جوانب الطريق بعد خروجي من العمل لنصف ساعة وحلقي جاف قبل أن أركب الدراجة البخارية وأضع القبعة على رأسي.

نصف ساعة قبل أن أعرف -أنني سأراها جالسةً في الأرجوحة الشبكية مع طفلها. طفل أشقر مثلها. نحيف وطويل. كانت ترفعه وهي تطلقه إلى الهواء ثم تمسك به بطريقة متثاقلة عندما يهوي،- من أنها أخفقت في إطلاقه في الهواء في إحدى المرات. لكني سوف أنظر إليها وهي تبكي، وتستشيط غضباً وتضع يديها على فمها.

لا أعرف كم عمرها ولا أعرف اسمها ولا أي شيءٍ آخر عنها. سمعتها مرة وهي تغني إحدى أغنيات الأوبرا بصوت باروكي عميق، واضح أنها غير مولودة هنا، لكن أين ومتى!!. لو كانوا قد قصوا عليَّ هذه الحكاية في العمل لما كنت صدقتها. رجلٌ مثلي. يعمل في مركز خدمة أشعة أكس الصحي في المدينة. أخصائي في الطب الإشعاعي، تخرج في الجامعة العمومية، دورة العام 83، متزوج من بنت مختلفة، لديها احتياجات خاصة. هادئ ورجل بيت. ولد وتربّى في المدينة القريبة من هنا. رجل عاش كل سنوات طفولته ومراهقته في الشقة نفسها، في المنطقة نفسها، وسط البلدة. الرجل المصاب بالذهول وهو برفقة امرأة ترتدي فستاناً على شكل جرس وتمضي ساعات الظهيرة وهي مرتمية على حشائش حديقة بيتها كأنها ضفدع.

كنت أراها بما تسمح به أبطأ سرعة في دراجتي من وقت. أفكر فيها وأشعر برغبة كبيرة نحوها. رجل مثلي، ليس طيباً على وجه الخصوص، ولكنه ليس شيطاناً. رجل مثلي يروق له مداعبة شعر امرأته الذابل بأصابعه، وممارسة الحب معها ببطء فقط عندما تنام طفلته الصغيرة، رجل يحترم مزاجها، وأيام دورتها الشهرية. رجل فطنٌ، مسلٍّ، لا يبحث عن تعقيد الأمور مطلقاً. والآن، ومع اشتعال الإشارة الضوئية أندفع على

جانب الطريق، يطاردني جفاف الحلق وأعرف بأني عندما أعود إلى البيت عليَّ أن أمر من أمام بوابة بيتها لرؤيتها، مضطربة وهي تجلس بين الأزهار.

تلك الصور التي تستغرق آخر عشرين كيلو متراً تفصلها عن بيتي. صورٌ مثيرة للغضب تلتصق في سقف فمي. هي بين الأشواك. هي رؤية مضيئة برتقالية وأنا ثعلب مجنون على جانب الطريق. أمر بجانب المزارع والحظائر، يتناهى إلى مسامعي نقيق الضفادع وبعدها ضوضاء الدجاج. الأشخاص ذاتهم يسلمون عليّ مثل كل مرة وأيديهم بالتراب أو في ضروع الأبقار أو وهم يتسلقون إحدى الأشجار ويحملون آلة لقطعها. إنه الجو المعتاد لعدة الزراعة وبراز البقر وأمكنة تسمين الخنازير وكلاب صيد، جو تفسده هذه الصور التي أقبض عليها مثل غنيمة حتى أصل إلى البيت. هذه الصور التي تكبر بداخلي وتتحول إلى دمار. رعب هذه الرغبة. تحاول نزع جلدي عني. أقول مرحباً بيدي لزوجتي الرائعة التي تنزع الأشواك الموجودة في الحديقة وترتدي القفازات، غير أن الصورة مازالت مستمرة حتى عندما أوقفت سيارتي ودخلت. الهالة تتسع. شجرتي الجافة التي تساقطت أوراقها تصبح مثيرة للشهوة. الصورة تستمر عندما أضع ابنتي بين ذراعي وعندما أضع الطعام في فمها الصغير وأدخلها إلى الحمام. بل أبعدُ من ذلك، أبعدُ بكثير. فجر هذا اليوم كنت أبكي عليها وأنا أجلس على الأرض في المطبخ وأضرب البلاط الأزرق الموشى بالزخارف القاشانية، تمنيت أن أمسك عظام أصابعها ووركها ومؤخرتها. خدعت نفسي حينما اعتقدت أنها أقصر قامة ممّا كان يمكنني الوصول إليه. ثمة صورة تصيبك بالسُّم، عينا البوم، ولكن الوقت أصبح متأخراً. دفعتها على الجدار، ثم فتحت عقدة حمالة شعرها بأسناني وحاصرت عنقها بالقبلات.

ما الذي تريد أن نفعله برفاتك؟ سألت زوجها بعدما حُسم أمر رئتيه. آآآ؟، قال وقد فقد السمع، أتريد أن ندفنك حبيبي أم ننثر رمادك؟ وجب أن تصرخ. لا فرق بالنسبة إليّ، أجابها. ولم يكن مهتماً بالتعليق على ذلك أو على أي شيء آخر. موت يومي ثانٍ كانت تعيشه حماتي التي كانت مستمرة في وضع بنطلونات زوجها المتسخة في غسالة الملابس. كان بيتها يتكون من كتلة من الخرسانة الكبيرة المحكمة المطلة على المراعي المفتوحة والجافة وعلى حقول الذرة الممتدة خلف صف من البساتين. كانت الأوساخ تنتشرُ على طريق الإسفلت المؤدي إلى بيتها، والهواء ملوث ببخار مسرطن. أحد الأشخاص كان يحرق أسلاكاً نحاسية كي يعيد بيعها فيما بعد. مجموعة من المناجذ تعمل حفراً عميقة في أرضهم أيضاً وتحولها إلى حقل ألغام. كان حماي معتاداً على القول إنه وجب إيجاد حل نهائي للمشكلة بوضع قنانٍ من الغاز لها حال خروجها من بيوتها، إنه يعمل محرقة للمناجذ.

ما زالت حماتي مستمرة في إعداد طعام لشخصين، وفي تغيير كيس المخدة، وخياطةُ سراويله الداخلية التي تمزقت في منطقة ما بين الفخذين. في الصباح، وكانت ما تزال مستيقظة منذ الليل، كنت أمر بالسيارة الصغيرة وكنت أشاهدها وهي جالسة، وهي مذهولة، وتضع رأسها داخل جرس. كانت تعيش بجسمها فقط، كمن يدخل بيتاً تعرض للغزو ويحاول أن يعبر على الأرض دون أن يلمسها. لحظة السلام الوحيدة، تقول، هي الحلم. وتشتت الروح ذاك. غير أنها كانت تعاني من اضطرابات خطيرة في النوم، كانت تسير في نومها. فقد طافت مرة حول البلدة بقميصها الداخلي وهي تصرخ: «حرييييق»!! ومرة أخرى استخدمت الحذاء كهاتف وتحدثت مع الله! وهذا الأمر يحدث غالباً عندما لا تمرر المكنسة الكهربائية على أرضية البيت عند الساعة الرابعة صباحاً.

ولاحظت أنها في الإفطار تتناول الخبز الأبيض الذي مضى عليه أيام وهو في المطبخ. ولا تنظر إلى تاريخ صلاحية الدواء الذي بدأت بتناوله منذ يوم دفن زوجها. لم تفزع الذباب ولم تُزِل بيوضه التي عششت داخل قارورة مربى الكستناء المنزلية. كنت أنظر إلى أصابعها وهي ترفع الخبز إلى فمها وكأنها أصابع شخص آخر، ثم تشرِق باللقمة لأن الوقت بالنسبة إلى الشخص الذي يبقى على قيد الحياة لا يمضي بسهولة دوماً. إنه البؤس الأبدي للروح. إنه مثل قميص مبلل بالماء، قميص رطب يلتصق بجسمها، أو إنه شيءٌ ما لا يمكن له أن يزول ولا يمكن انتزاعه. ومع أن شريك حياتها لم يكن يمضي ساعات طويلة في الدخول بها، إلا أنه لمساءاتٍ كاملة وأشهر صيف طويلة متشبث بها. حتى أيام كانا يعيشان في البلدة لم يكن يضاجعها ويشبع رغبتها المتقدة. وعلى الرغم من أنه لم يفكر البتة فيما تشعرُ به من حمى الإثارة، إلا أنها كانت تمشي مزهوة بشدة، ذلك أنه شريك حياتها.

كان يفكر أن امرأته بدلاً من أن يكون لها مهبل، فإنها تملك حجارة أُودِعتْ في مكان عميق من الكهف الذي تمتلكه. كان يفكر بها على الدوام وهي مغطاة بتلك الشالات التي دأبت على تطريزها بنفسها. اعتاد أن يحبها كما لو أنه ولد على هذه الحال. وهي كذلك. شعرت بالتأثر عندما رأت جثة زوجها نظيفة، إذ إنه قبل أن يتحول إلى رماد بدا على هيئة جسم وُلد في خريف عام 1940.

الحذلقة والحوارات الأحادية التي يجريها وهو جالس على رأس الطاولة، ضحكته وهو يقود الجرار انتهت محبوسة في صندوق من خشب أشجار الصنوبر. هناك ذهبت الأسرار الصغيرة، هروبه إلى ماخور المنطقة، المرة التي أدخل فيها يده الثقيلة أسفل تنورة إحدى تلميذات المدرسة في باص القرية وانتقده الجميع على ذلك. هناك ذهبت أيضاً مآثرُ البطولية في الأسطول البحري، الأموات الذين شاهدهم يحتطبون في نارها، لعب الورق في قُمرة القطار وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وكذلك المرة التي جعلها تتبول فيها على نفسها من شدة الضحك ووجب عليها أن تسرع لتغير ملابسها الداخلية.

كانت ليلة السهر على جثته قبل دفنه كأيّ ليلة، كان وداعاً قصيراً. كان أباً وزوجاً فاضلاً، قال المدعوون، رجلاً فاضلاً للغاية. ذهب الناس في موكب لتناول الطعام في الفندق حيث الراحل كان أحد نزلائه المعتادين، هناك كان يمضي أوقات الظهيرة وهو يتناول كؤوس الخمر والأطباق الخفيفة، هناك كان يروي بسرور أساطيره في خطوط المواجهة. كان الضيوف يتذكرونه كرجل بين رفاقه.

لم تكن وفاة حماي حدثاً بعينه شديد الوقع عليَّ، أفشت أرملته أسراره عندما قالت بأنه اعتاد البقاء في جانب مظلم من غرفة الجلوس، يجلس لساعات بمواجهة الشجرة المزينة بالمصابيح الصغيرة. ما يجعلني متأثرة، حقاً هو افتقادي لكلماته في حياتي القذرة، وافتقادي له حينما يصف نفسه قائلاً بنبرة صوته الرخيم الممتزج باللعاب: «أنا رجل

وهبتُ كثيراً من الصفات». ينطُّ هنا وهناك، ويهذر بالكثير من ذكريات الشجاعة والحرب والثورات الكثيرة، وفي نهاية المطاف لم يذكره أحد بجملة واحدة.

كان الليل طويلاً حالك السواد ورقيقاً وهو يهبط علينا. ظلام شديد متجبر. كانت المروحة تدور. كانت حبيبتي المدهشة تنام في الشِباك البيضاء، بدت طرية مثل سمكة بلا حراشف. كنت مهووساً بفكرة النوم. منذ ساعات وزوجتي تحلّق بأحلامها وهي إلى جانبي وقد تفتت أقراص البخور الحلزونية الطاردة للبعوض وهي تترك أثر رائحة العطلة في فترة المراهقة.

نهضت ومشيت على أطراف أصابعي متجهاً صوب الباب وأحمل بيدي ملابسي التي كانت معلقة على ظهر الكرسي الحديدي. ارتديت ملابسي في الظلام وأنا في الممر. وحملت حذائي بيدي ثم عقدت قيطان الحذاء أسفل السماء المنفتحة. دفعت الدراجة صوب الشارع وشغلت المحرك بعد أن اجتزت مجموعة من البيوت في الجوار. كنت أنظرُ إلى الأشجار المقطوعة بضربة فأس غائرة. وشاهدت جماجم الأرانب المثقوبة المنثورة كالأزهار على مدخل الغابة. رأيت مجموعة من الفراشات الليلية التي تحوم فوق رأسي ثم اخترقت أذنيّ ودخلت في ياقة قميصي، وبعد ذلك بقليل صارت تتشاجر في شعري ثم دخلت أنفي.

كان الهواء القادم من الرابية والطريق منعشاً، فقد أذهب عني الشعور بالاختناق. كنت أتقدم متجهاً صوب الطريق العام وقد اجتزت مجموعة من الرجال المسالمين، كانوا يحملون بنادق صغيرة وسكاكين. اقتربت من الطريق وأنا أقفز بدراجتي قفزات كبيرة. مررت بالبيوت التي اعتدت المرور بها سابقاً، وبالبيت ذي النوافذ المغلقة وببيت الزهور الاصطناعية، وبيت كلبَيَّ الهوسكي السيبيريين التوأم. أدرت المحرك لأطفئه، ثم تركت الدراجة مستلقية على العشب، وتقدمت نحو بوابة بيتها. مشيت إلى هناك ثم عدت، إلا أني لم أمد بصري إلى داخل الحديقة أو البيت. لكن أتاحت لي أوراق الأشجار أن أميّز أشياء بسيطة.

ثمة ضوء يتسرب من تلك العتمة المطلقة. شخص ما يستيقظ للتو. أو ربما يكون الطفل الذي هزته الصور التي كان يراها في منامه لتوقظه. وضعت يدي على مزلاج الباب ثم دخلت لتطأ قدماي لأول مرة أرضها. بيتها أمامي، بدا كأنه منظر طبيعي. صار حذائي مفلطحاً في الأرض. تقدمت عدة خطوات حذراً من ألا يراني أحد عبر أي من النافذتين المقابلتين. سرتُ وأنا أمرّر يدي على مدار الجدار الذي كان متصدعاً، كما لو أن البرق قد ضربه كي أستدير لأصل إلى الجزء الخلفي من البيت. ما زال الضوء مشتعلاً، لكن لا شيء يمكن سماعه إلا صوت الـ «إششششش» العدائي الذي كانت البوم تصدره.

كنت أنتظر رؤيتها وهي تنزل من أجل أن تشم بعضاً من الهواء، تتملكها الأرواح وهي ترتدي قميص نومها الأبيض. كنت أتطلع إلى النظر إليها وهي تطل من النافذة وقد احمرت عيناها. أو تطفو على السطح مرتدية ثوباً أسودَ. وإذ كنت هناك في منطقتها استطعت أن أشعر بالكره الذي كان يعتمل بداخلها وكنت أرجو أن لا تصيبني بعدوى الكآبة من ضرورة البقاء على قيد الحياة. كم هي نتنةٌ تلك العاهر. وكم هي رقيقة. ثمة نافذة أخرى تُفتح وتحدث شرخاً مفاجئاً في الجدار. كنت أشعر بمزيد من الخوف من الهروب، وبقيت بانتظار أن يحدث شيءٌ ما. كأن يخرج زوجها أو أن يعضني كلبٌ ما، أو أن تذهب هي ليصبح الخوف أكبر. سمعت وقع ضربات تطقطق على السلم الخشبي.

كانت أقدامها مخالب معدنية. وشعرها طويلاً يصل إلى الأرض تشكله ذرات صغيرة. ما زلت واقفاً مثل عمود بقدمي المبللتين. ظهرت. اتجهت صوبي وهي تركب الهواء، لكنها استدارت لتعود وسط تيار قوي وعندما توقفت فتحت فمها العظيم وكأنها أرادت أن تصرخ، لكن لم يخرج منها أي صوت. كان من الصعوبة عليَّ أن أتمالك نفسي. وجدتها

لا تقاوم الحالة التي كانت عليها، على الرغم من أنها كانت على بُعد بضع خطوات من خزان الصرف الصحي كريه الرائحة. وعلى الرغم من إحساسي العنيف بالإثارة ومن رغبتي في التهامها وشمّها، لكني لم أتحرك. هي كذلك لم تتحرك.

افترضتُ بأننا تعرّفنا إلى بعضنا في تلك اللحظة بين الظلال. كان ذلك عندما تبادلنا الحديث عن مأساة حياة كل واحد منا. كان ذلك حديثاً عن الماضي، وعن سبب وجودنا في هذه البئر، وسط هذه المجموعة من الحيوانات، وعن السبب الذي يجعلنا نهرب في منتصف الليل. «أمسك بسكين واقطع فمك» قالت، وأطعتها بينما ركضت لتدخل إلى البيت وهي تلتفت إليّ وأنا أنزف. أسرعت في الهرب على دراجتي وقد أيقظت الجميع.

أجلس الآن إلى المائدة. لم يبقَ سوى قدحي. فقد رُفع عنها كل شيء. غُسلت الصحون في الغسالة، الملح في مكانه، وزوجي ذهب ليستلقي. الكلب الجديد يتبول على نفسه. أعلم بأن عليَّ أن أنهض، لكني لا أفعل. أمد ساقيَّ فوق الكرسي الآخر. أغفو وأنا أمتص عود السواك. سوف يبول أسفل المائدة لكن لن أنهض. أزرار بنطلوني مفتوحة. من هنا أستمتع بالنظر إلى الأفق الذي ينفتح نهاية الحقول التي تنتشرُ عليها رزم القش المدورة، أو ربما لو امتلكت بصر الوشق، لأمكنني رؤية ليس ظلال الأشجار وصورها فحسب، بل حتى الطفيليات التي تلتصق بجذوعها. يمكنني رؤية ما هو موجود أسفل الأرض، ذلك الذي يعيش بداخلها ونحن نائمون.

في هذه الساعة تمر في النهر أبقار عائمة، أرجلها متصلبة تتجه إلى الأعلى، فاجأها تيار الماء الهادر الذي اندفع عليها عندما نزلت لشرب الماء. جيف البقر تلك التي يمكن مشاهدتها من الجسر المعلق هي أحجار أو رجال. ما زال الكلب بلا اسم يجذب الملاية بفمه ويحطم قدحي الزجاجي.

إنه يتبول الآن وخطمه أحمر. وجب تعميده باسمٍ ما، لا مشكلة عندي بأن أسميه كلباً، غير أن زوجي يُصرُّ على تسميته بطريقة أخرى ودمجه بالعائلة. أنا أريد أن أتبوّل أيضاً، لكني لم أتحرك حتى الآن، أشعر بتشنج عضلي. شيءٌ ما اعتدت على لعنه دوماً في الحياة الريفية، واليوم أتذوق مرارته، وهو أن المرء يمضي يومه في قتل الأشياء. إذ تظهر في وقت تناولي قهوة الصباح العناكب في حوض غسيل الأطباق، تغرق في الماء حال فتحي الحنفية. البعض منها يكون أكثر فعالية وقوة حيث تنطوي على نفسها لبرهة، ثم تقاوم وهي تنغلق مجدداً على نفسها لتبدو وكأنها زهرة صغيرة. إنها هي من تشجعني على فتح الماء الساخن عليها والانتهاء سريعاً من موتها.

وفي اللحظة التي أدهن بها حلوى السفرجل يحين دور الذباب الذي يأتي لمطاردتنا منذ عصر ماقبل التأريخ، إلّا أن ساعة القضاء عليه قد أزفت. احتجزتهم في القارورة، التي أحكم غلقها بحركة سريعة لأضع الغطاء عليها. أجلس بعدها وأضع الصغير على ركبتي لمشاهدتها وهي تلتصق في الحلوى. أستلقي في الأرجوحة الشبكية وأنا أصعق بالكهرباء النحلات، وألقِّن النحلة التي تحاول أن تلسعني درساً.

نكدس أنا وابني مجاميع كاملة من النمل داخل صناديق أعواد الثقاب التي نشعل بها موقد النار فيما بعد. من الواضح أنها تطلق رائحة زكية لأن صغيري يأخذ نفساً عميقاً منها. لا أكاد أشعر بأية رائحة. أخرج بعد ذلك وأدوس على ديدان الأرض والجنادب.

كانت أكثر اللحظات التي تشعرني بالراحة هي لحظة الفنجانين الصغيرين الممتلئين بالجعة اللذين أضعهما في الشرفة، ليسا مملوءين تماماً. إذ يصبح لزاماً على حلازين البزاق البني أن تحني رؤوسها وتشرب منهما. عندما أسير في أوقات الليل أجد حلازين البزاق وهي ثملة تدور داخل المشروب، وحول الإناءين، وكذلك أسفلهما.

في الحمام، وأنا جالسة على المرحاض، راق لي مسك الفرشاة وكنس خيوط العنكبوت التي تظهر في السقف بضربة واحدة. تبول الكلب. لا أفكر في أن أنشفه. لم أفكر أبداً في تبني هذا الكلب، إنه زوجي الذي شعر بالحزن عليه عندما كنا عائدين من السوبرماركت، فقد رأيناه وهو راقدٌ على الأرض في منتصف الطريق.

اتسعت بركة البول الصغيرة لتصل إلى الباب وتتسرب من أسفله. أخذ الكلب يلعق الأرض حتى ارتطم بشبشب سيده، زوجي، الذي استيقظ للتو. كان كلباً مطيعاً لاعقاً. ما الذي يحدث؟ سأل زوجي مذعوراً لرؤيته بركة البول والزجاج المحطم. لم يكن الأمر مفاجئاً، لو كنت مكانه لأصبت بالذعر أيضاً، لكن هذه أنا، إذ ما زلت أجلس في مكاني من دون أن أتحرك. التفتَ بحركة بسيطة من رأسه نحو المائدة، رمقني بنظرة ثم أخذ يسألني. أعلم، قلت. ماذا تعلمين؟ لا تجعلني أقول ما يجب عليّ أن أفعل، إذا قلتُ لك بأني أعلم، فإن ذلك كافٍ. لكن في الحقيقة كلا. ما الذي تفعلينه وأنتِ جالسة هناك، ألم تشاهدي الكلب وهو يتبول على نفسه؟ صغيري المسكين. ألا ترين أنك تدوسين على الزجاج المحطم؟ ولماذا بنطلونك مفتوح الأزرار؟.

شعرت بالحزن عليه، فهو متزوج من امرأة بنطلونها مفتوح الأزرار. أريد أن أكون ببنلطون مفتوح الأزار، ألا يمكنني ذلك؟ سألته. تعلمين جيداً أن الموضوع لا يتعلق ببنطلونك مفتوح الأزرار. يمكنني أن أكون ببنطلون مفتوح الأزرار إذا أنا أردت ذلك!!. تعالي قال، وهو يفتح ذراعيه. كلا. تعالي. كلا. ولمَ لا؟ لأنّه أجل، لا أريد. ما الذي يجدر بي أن أفعل؟، هل أكنس؟ افعلي ما تشائين. وهل ستبقين هناك، إذن؟. أجل. يمكنك أن تبدأ بالاعتناء بالبيت على أفضل وجه. أتعلم ما الذي وجدت في المطبخ خلف قنينة الغاز؟ وجدت فأراً محنطاً وديدان الأرض مجتمعة عليه. كم مضى من الوقت وصغيرنا يتناول طعامه من هناك؟ ثم أضفت قائلة وأنا أصيح بقوة: وأنت، توقف عن رمي رماد سجائرك في الفناجين، وفي الصحون الصغيرة، مثلاً، منذ زمنٍ وابننا يأكل منها، إذن لتشترِ منفضة سجائر!!

ذهب خارج البيت، يتبعه كلبه المطيع، ثم سمعت الحيوان وهو يفرغ ما تبقى من دفقة البول التي بقيت معترضة في مثانته. ثم تناول الفرشاة وعاد ليكنس الأرض محاولاً عدم التسبب لي بأذى، ويضرب الأرض برجله بضع ضربات خفيفة كي يخيف الكلب.

ما زلت أنظر إلى مائدة الطعام وهي فارغة. لا وجود لأي أثر للعشاء. في هذه اللحظة من النهار، في أي مكان، عندما يتغير مسار الضوء، عندما تميل الشمس إلى الغروب، تنهار الأشياء أو تختفي. هل نخرج حبيبتي؟ لماذا نخرج، حبيبي؟ الجو خانق هنا حبيبتي. وخارج البيت خانق كذلك. نظرّ إليَّ وخرج. أعرف بأن عليَّ أن أتوقف، إذ لا يوجد خيار هذه المرة. لكني كما أفعل عندما أسمّر أظفري في لثتي كي تتورم.

بقيت متشنجة وأنا أجلس على الكرسي وجهاً لوجه مع شيء ما يتشظى. ذلك العشاء، ذلك الوقت الذي أكلنا فيه منذ أقل من ساعة، صورة عائلية لأجيال مختلفة، سبعة أخوة يقفون مبتسمين على سلم، والآن جميعهم ميتون. بقيت عالقة هناك، بقيت وكأنني خلف أحد الأبواب بانتظار مَن يفتح لي. سمعت صوت محرك السيارة يدور ويطلق نفخة غضب وعلمت أنه الإنذار النهائي.

تحركت يداي بطريقة عنيفة كأنهما تكسرتا إلى أجزاء، بقيت هناك لوقت كافٍ من أجل زوجي ليسخن المحرك وليقول: اللعنة على أمك. نهضت وجسمي متصلب. تحركت السيارة، والكلب في المقعد الخلفي، وجه عليَّ الضوء. خرجت وتركت الباب مفتوحاً. ثم ذهبت لأطل من نافذة السيارة. يضع الكلب أرجله المتسخة على مقعد طفلي الصغير. قل له شيئاً!!. حسنٌ، سرعان ما سيخرجها، اركبي. أنت لا تتركيني أقود السيارة وأذهب. اللعنة، إنني لا أمزح الآن.

دعينا نتحدث، لا يمكن أن يستمر الحال على هذا النحو. أعتقد أنه قال أو حاول أن يقول: لا تولي الاهتمام لأي شيء. لم أكن أنا الأخرى صافية البال كي أتيح لنفسي الدخول معه في النقاش. كان الجو بارداً، هو ليس البرد نفسه الذي نشعر به في الثانية أو الثالثة صباحاً، بل هو برد الساعة الرابعة أو الخامسة. الطفل، قلت، الطفل على ما يرام، لكني أنا من يشعر بالسوء. متى ما يقول هذا فإنه يعني أنه يشعر بالغضب. قلّلت من غطرستي وركبت. لطّخ الكلب مقعد طفلي، واستعمله كفراش له ينام فيه داخل السيارة. وسرعان ما اتجهنا صوب المدينة التالية ونحن نصغي إلى أغاني الروك التي كان يبثها الراديو المحلي على الرغم من إرساله البائس. يحجب الضباب رؤية السطوح والزرائب والحانات. كأن ضباب الفجر ستار داكن اللون يغطي الحيوانات النائمة وحظائر الأبقار والأبرشيات.

راح زوجي يترنم ويصفر بلحن كلماته بالإنجليزية. أغنية عظيمة، قال، ثم أدار قرص المكبر ليرفع الصوت. فرقة آل سميث. بالنسبة إليه لست سوى امرأة تعيش خارج نطاق الأرض، فقط لأني لم أسمع بهم من قبل. أعتقد أن المصابين بتخلف عقلي وحدهم يؤثرون متابعة أغاني الروك. فالقيثارة لا تثير بداخلي أية عاطفة. نام الكلب وهو يضع خطمه بين أقدامه. تقول كلمات الأغنية:

And when a train goes by, it is such a sad sound. No...,it is such a sad thing.

يطلق يديه إلى الأعلى لكنه سرعان ما يضغط بقدميه على الكابح. أيل يافع يصطدم بالزجاج الأمامي للسيارة. أولاً كان الرأس، وبعدها الجسم، خرجا كأنهما حشرة طائرة تتجه إلى اليسار، بقي راقداً على غطاء المحرك بعد تعرضه للضربة. صرخ الكلب. ارتطم الجزء الأعلى من جسمي، ارتطم وهو يندفع بقوة إلى الأمام. لم أكن أضع حزام الأمان، إذ دائماً ما أنسى ربطه.

على الرغم من أنه كان يقود ببطء إلا أن جبهتي ارتطمت بصندوقة السيارة، كنت أشعر بالذهول. لا بد أنك قد أصبتِ بالأذى، أليس كذلك؟ الحزام أخبرتك ألف مرة، الحزام!!. هل الجميع بخير؟ ثم التفت إلى الخلف لكي يرى الكلب الذي كان هائجاً ويلهث وقد لطخ النوافذ بأرجله القذرة. إلا أنه انتبه فيما بعد أن للكلب رجلاً معاقة تتحرك على وفق إيقاع ماسحات زجاج السيارة، وكأنه يحكَ عجزه. ترجلنا من السيارة، حمل زوجي الحيوان على ذراعيه. كانت الموسيقى مستمرة. الكلب يلعق جسمه الذي ارتطم هو الآخر. أسرع الأيل هارباً بكل ما أمكنه، كان يعرج، وكأنه لم يستوعب بأنه بقي على قيد الحياة. أخذ زوجي ينظر إلى الضرر

الذي أصاب راديتور التدفئة، ثم تذكر بعدها وعانقني. أصابنا العمى بسبب الدخان الكثيف الذي كان يخرج من السيارة، وفي غضون لحظة قبّل الكلب من فمه، فيما هبطتُ أنا كي أُقبّل جذع الشجرة الساقط على الأرض. علينا أن ندفع السيارة الآن، قال: لكنه ابتعد قبل ذلك لبضعة أمتار وأنزل سرواله الرياضي. لدي زوج داعر. كيف يمكنك إخراجه الآن؟ والآن ماذا؟!! قال وكأنه مثل أولئك الذين يمضغون العلكة في مأتم. قام الحيوان بعمل قذر وهو يلعق أثر الدماء التي تبقت على غطاء المحرك. وسرعان ما بدأ يهز رأسه. أطلقنا عليه اسم «بلود الدموي» لكننا كنا نناديه «بلودي». لففناه بما وجدناه وربطناه بحزام الأمان في المقعد الخلفي. دفعت السيارة بينما كان هو يسرع بعدها هرولت مسرعة إلى السيارة كي ألحق بها وهي تتحرك إلى الأمام. كان علي أن أركض بقوة لأنني فكرت بأنهم سيتركونني خلفهم.

في البيت وجدت الطفل واقفاً، ويداه تخترقان قضبان مهده الصغير وهو يصرخ على «سجّانه». غسل زوجي سيارته بخرطوم الماء. كان بلودي يتبعه، لكن بوجه يوحي بالألم، إذ لم يعد يتحمل بعد، كانت دموعه تسيل، وهو يجر قدمه، ويقلب الأرض ليعمل حفراً صغيرة فيها. وبعد أن ذهبنا لننام. أخذ صوت الـ «إيييييييي إيييييييي» الذي يطلقه بلودي يدوي في جميع أرجاء البيت. نهضت مشوشة، أمسكت بالمصباح اليدوي الذي وجدته في درج المعدات، وتوجهت صوب المرآب. تفحصتُ كل شيء. كان هناك الكثير من القذارة التي تراكمت على الخشب، وعلى الأثاث غير المستعمل وعلى الكراسي المتحركة. كان جهاز التلسكوب يلمع وحيداً وهو ينغمد في غلاف بلاستيكي شفاف. ثم أدركت بأن لا رغبة لي بالبقاء هناك. خرجت وتركت الباب نصف مفتوح. ولم يتأخر الهواء القارس في جعل البيت بارداً للغاية. ذهبت وأنا أرتدي حذاءً مطاطياً برقبة عالية، كنت شبه عارية وصلت إلى المكان الخاص بحماتي. كأني لم أكن أعيش في تلك في البلدة، بل في فيلم من نوع ويسترن سباغيتي، أخذت المفتاح الصغير مع الميدالية التي على شكل قدم أرنب، المخبأة في إحدى الأصص الموجودة بجانب الباب، ثم فتحت الباب. لو أن حماي ما زال على قيد الحياة، لكان قد رمى أي جزء، ولكن لكان قد راق له كل شيء. القمصان مكوية وقد رُزمت على نحو منتظم، الكتب مرتبة في المكتبة، لا شيء يوحي بأن أحدهم قد توفي منذ مدة قصيرة.

صعدت مرتقية السلم المعلق وأنا أمسك بالحبال. كانت نائمة ولسانها خدر وهو تحت تأثير الدواء. حماتي لوح خشبي، تغطي عينيها بقناع، وتسد أذنيها بقطعتين من القطن، لا تمتلك صدراً، ولا شيء مثيرٌ للحواس

في جسدها، كأنه طاولة ملفوفة بالملايات. إلى جانبها، كان هناك بيانو ولوحة يابانية لجزيرة صغيرة. غرفتها باردة كالثلج. تسببتُ ببعض الجلبة عندما تعثرت بأحد أحذيتها الذي يمتد منه قيطان طويل. غير أنها لم يرمش لها جفن. أشعلتُ شمعة. وعدت أنظر إلى البيانو. أردت أن ألمس أحد مفاتيحه. بحثت. ثمة أناس تحتاج إلى رؤية المحيط. أما أنا فأحتاج إلى رؤية سلاح ما، حتى لو كان سلاحاً ساكناً وقذراً وفارغاً من الرصاص.

عندما فتح زوجي إحدى عينيه وجدني أصوب السلاح عليه. أصيب بذُعرٍ شديد لدرجة أنه لم يستطع أن ينبس بكلمة. أُقتله، قلت. ماذا، مَن؟ قال. إيييييييي، إيييييييي. أقتل الكلب. ولمَ أقتله؟. لأنه يتألم. وماذا؟. وأتركه يرقد بسلام. هل تتحدثين جادة؟ إيييي. إيييييي. غداً نتصل بالطبيب البيطري، قال ذلك وعاد ليستلقي ويدير مؤخرته إليَ. تتصل بمن؟ أقتله الآن، هيا، قلت ذلك وأنا أفقد صوابي. بيد أنه لم يتحرك بل راح يشخر بقوة تكاد تفوق قوة أنين بلودي. وقفت أبحلق فيه وهو نائم مستغربة أمام خسته الدائمية. البندقية في يدي هرعت لأطوف البيت حتى وصلت إلى زاوية المطبخ حيث كان يتلوى على خرقة قماش متسخة وينشج من الألم. صوبت البندقية عليه. شعرت بأني مثل جندي إسرائيلي. ثم أتى لي الصوت من داخل رأسي وهم يعطوني الأمر: «أطلقي النار، أطلقي النار، اللعنة». وسرعان ما أطلقت أول رصاصة في حياتي.

دأب الناس في المدن وفي الأيام الممطرة على أن يقضوا أوقاتهم في دور السينما وفي المسرح وفي المطاعم، أما في الريف فإنهم يقصون الحكايات ويعتقدون أنهم على هذا النحو يقاومون الملل: كانوا بعد العرس يجلسون في الطابق الأعلى من المكرو- باصات ذات المقاعد المستخدمة للنوم. وكانوا يسافرون وهم يرتدون ثياباً كالثياب التي يرتدونها في الحفلات ويضعون دهان الشعر اللامع وبقايا قصاصات الورق الصغيرة الملونة واللامعة على ملابسهم. يخلعون أحذيتهم، حذاؤها داخل حذائه. في شهر العسل يذهب العروسان إلى الجنوب، ويمضيان الوقت في بيت خشبي صغير على حافة البحيرة. ثمة كراس إعلاني صغير كُتب عليه: «انظر إلى المرآة» وضع لوصف المكان. هي تنام مستندة على كتف من أصبح زوجها للتو. وهو ينظر كيف أن الطريق يندفع باتجاهه مسرعاً. تركت عجلات سيارته آثارها على الإسفلت، بالإضافة إلى البقع التي خلفها الوقود عليه أيضاً. فضلاً عن الحيوانات التي سحقتها السيارات إلى درجة أن أصبحت هيئتها متوحدة مع الأرض. تأتي الغيوم ولم يكن لونها ضارباً إلى الحمرة بل كانت رمادية.

كان الجو بارداً بسبب الهواء المكيف. كانت زوجته تغطي نفسها بسترته، فيما كان سائق الباص يسعل. نظر إليها وبعدها حدّق في صورته التي ظهرت منعكسة في زجاج النافذة على خلفية الليل الحالكة السواد. تركها نائمة عندما وصلوا إلى محطة الوقود. طلب قداحة من سائق الباص الذي كان يدخن ويقف متكئاً على غطاء المحرك الساخن. وقف وهو ينفث دخان السيجارة وسط المسافرين. تمشى في المحطة العفنة وشاهد بين الباصات الصغيرة عائلة بأكملها يجلس أفرادها القرفصاء ويأكلون من الأرض، وعدداً كبيراً من المسنين كانوا ينامون على طابور من المسطبات، تساءل إن كانوا يعرفون بعضهم البعض. لاحظ أن جزءاً

كبيراً من المحطة كان مظلماً. لم يخبروا أحداً وفستانها المكشكش كان يخفي بطنها جيداً، لكنها كانت حاملاً. كُنا حواملَ، قالت. من هذا البطن جاء زوجي المستقبلي. ثم وجد فيما بعد أن سيجارة السائق قد تجاوزت النصف وأنه قد ابتعد كثيراً لتصبح جولته أطول. وصل إلى كشك خشبي كان بين الحشائش، طاف خلفه ثم فتح موضع سحاب بنطلونه. لكن لم يخرج أي شيء. كان جافاً. نظر هناك، إلى مكانٍ بعيدٍ يقع على مسافة من المحطة، كانت بلدة تشبه الظل. سحق السائق عقب السيجارة بقدمه، ثم طقطق ظهره بحركة صغيرة وعاد مسرعاً إلى هناك. الباصات الصغيرة لا تنتظر. صعد السلم الحلزوني مع رجل ربما بعمره لكن بدا أكثر شباباً منه بالمقارنة به. بحث عن مقعد له مستعيناً بوضع يده على سقف الباص.

كانت نائمة وفمها نصف مفتوح، بدت وكأنها تنام غي فراشها. فعلت الحركة التي تفيض عن الحاجة، الحركة التي اعتادت أن تقوم بها كل حامل، إذ وضعت يديها على بطنها. فيما جلس في مقعده وهو مرتاح، ومرة أخرى اندفع. سُمِّيت تقاطعات الشوارع بأسماء الأموات بلافتات موضوعة على جانب الطريق. وأمكنة تجمع النفايات تمتلئ بالطيور. وخطوط الطاقة الكهربائية تنقل الكهرباء من مكانٍ إلى آخر. كان يبكي طوال الرحلة. أول مرة، بكى قبالة أرض خالية مجرفة. وبعد ذلك في أحد المنعطفات المطلة على البحر.

وفي وقت لاحق، عند سماعه صوت الثلج الذي يتساقط سريعاً على السقف. بكى ثم بكى. وعندما دخل الباص في المرحلة الأخيرة من الرحلة، كان ما يزال ينظر إلى مشاهد الطبيعة وقت طلوع النهار، من غير أن ترى عينيه النوم تقريباً. تمطت ثم ابتسمت ابتسامة كاملة وقالت طاب نهارك حبيبي، دون أن تفك يديها عن بطنها التي كانت تضم البذرة التي ستصبح حبيبي لاحقاً. هذه هي الحكاية التي سمعتها عن رحلة شهر العسل التي أمضاها حماي وحماتي معاً. وهذا هو ما سيتبقى لأولادهما وأولاد أولادهما بل أبعد من ذلك. كلب يتبرز على أحد جوانب الطريق منحنياً، وينظر إلى باص صغير يوجّه الضوء صوب قذارته وبداخله رجل يستند على زجاج النافذة وهو يبكي.

بيدِ أمسك بولدي الصغير. وباليد الأخرى أمسك بالمبشرة. بيد أحضر الطعام وباليد الأخرى أوجه الطعنات إلى نفسي. ما أروع أن تمتلك يدين. كم هو عملي. إنهم ينتظروني هناك في السيارة التي بدأت تتحرك، أهرول وأحاول أن لا أتعثر وأسقط، ضربوا لي بوق السيارة. ها قد سمعت!! ثمة إصرار على أن أكون معهم، وأن أكون جالسة في المقعد المجاور، حزام الأمان مربوط على نحو جيد، جميعنا بانتظار جولة يوم الأحد. إلى أين سنذهب؟ قالت حماتي التي تركت حدادها للتو، وبدأت تتصرف على أنها أرملة أخرى، واحدة من الكثيرات اللاتي يجلسن إلى طاولات الحانات ذوات الأسلوب الحديث لتناول الرقائق والمعجنات. إلى أين تريدون الذهاب؟ سألت، وهي دائماً ما تفعل الشيء نفسه. لا يمكنني البقاء صامتة. كنت أنظر خلال النافذة وحسب، عليَّ أن أقترح مكاناً نقوم فيه بجولة. الذهاب إلى النهر لتناول البطاطا المقلية مع المقبلات، ومشاهدة الجنود وهم يمرون ويقومون بالتزلق على الماء مرتدين بذلات الغوص تلك. التوجه إلى المدينة، ارتقاء سلم شركة «فيلا» للملابس الرياضية الخارجي التي تقود إلى برج الجرس، أو أفعل كما يفعل السياح وهم ينظرون مفتونين إلى أكثر الأشياء غباءً، إلى حجارة، أو إلى أحد سقوف البيوت القرميدية. الذهاب إلى مهرجان كيرميسي الجوال، أو الذهاب إلى تناول فنجان قهوة وسط المدينة، قرب السوق، ووسط دخان اللحم المشوي الخانق.

يجب أن أبدو بأني متحمسة ويجب أن أتظاهر بأن الاستمرار بالعيش أمرٌ ممكن. يجب أن أصحب الطفل هنا وهناك، أشتري له البالونات، أن أجعله يدور كذباً في لعبة العربة ذات الأحصنة والمظلات، وأن ألتقط له الصور، يجب القيام بذلك كي تصبح له طفولة. لنذهب حيثما نذهب، لكن لنذهب وحسب، قالت ذلك حماتي بنبرة الغضب ذاك الذي يعتري الأرامل. ها هي الآن تعود للتو لتقص أظفارها، ها هي الآن تنام للتو في الليل من دون أن تلمس جسد زوجها الميت، ها هي الآن تتناول للتو فطورها من دون أن تمزج القهوة بالحليب. وبالطبع، تريد أن تتمشى.

الابن الوحيد يرافق العجوز، هو أفضل مَنْ يقوم بذلك خارج هذه البالوعة. أرى بأننا نعبر الجسر المعلق. يريدني زوجي أن آخذ عجلة القيادة وأتدرب على قيادة السيارة في المرتفعات لكنني لا أشعر بالحماس تجاه ذلك. أشعر بدوار. في المنحدر ثمة كثبان رملية وعائلات تجلس في كراسي شواطئ البحر المائلة إلى الخلف. ثمة كبار في السن وهم في يوم إجازتهم من علاج الشيخوخة، شغوفون ليكونوا مع أبنائهم وأحفادهم، توجد الكثير من النساء الحوامل المحبطات اللاتي يخبئن أعقاب السجائر. يوجد مدمنو الهيروبين في مرحلة إعادة التأهيل. يوجد كل شيء. تريد حماتي الذهاب إلى هناك.

أوقفنا السيارة في نقرة، سحب زوجي الكابح اليدوي للسيارة وترك الناقل الحركي على رقم واحد قبل أن ننتهي لنكون أسفل الجسر. نحن هناك أيضاً، العائلة التي خرجت لتشهد هبوط المساء. كأننا لا نعرف بأن الشمس تشرق ثم تغيب لتختبئ. أقصد أن كل يوم يحدث الشيء نفسه.

يزحف طفلي الصغير وتتمشى حماتي نحو الخلف وهي تشعر بألم في ظهرها. شعرت بالضجر وأنا أنظر إلى أوزة تمرّ وهي عائمة على سطح الماء من غير أن تغطس لقضم سوق النباتات والزروع المائية حتى هجمت لتلتف على رقبة أحد الكلاب الذي كان في أحد القوارب، كان الكلب أنيقاً للغاية وهو يحتفظ برقبته سابقاً.

شيء ما ينقذ تلك الرتابة فجأة. موجة من الناس تتحرك صوب الساحل، وهمهمة بدأت ترتفع. راح الناس يتوالون ويزدحمون وهم يسيرون باتجاه النهر. شاهدت سيارة شرطة وهي تعبر الجسر، تبعها بعد ذلك سيارتان أو ثلاث سيارات أخرى...

يبدو أن هناك مشاهدَ لألعاب نارية. يتزايد عدد الناس ونحن جميعنا جزء من عائلة الناس نفسها. القصة أن شاباً مراهقاً في الثالثة عشرة من عمره كتب على تويتر بأنه يودع الناس وقد أتى إلى هنا ليلقي بنفسه من الأعلى. لكنه توجه قبل ذلك بالشكر إلى متابعيه لدعمهم له. استدعت الشرطة رجال الإطفاء لكن، حالهم حال الآخرين، لم يتمكنوا من فعل شيء. وضعوا شريطاً أبيض موشى بالأحمر، إلا أن ذلك من الواضح لم يمنع الناس من أن يكونوا بعيدين. حتى طفلي الصغير كان فضولياً وقد تركته يشاهد ما يحدث.

لم أشأ أن أضيّع وقتي بالنظر إلى شيء ثقيل يطفو على الماء. إنه يتسبب الآن بإثارة إحساس ما، إحساس يثير هرمون الأدرينالين. الآن ستأتي المرحلة التي يتساوى فيها الإنسان الحي مع الإنسان الميت. هذا الفرق شديد الدقة الذي يشكل الكون. فرقٌ بالكاد يدركه سائق ناقلة الشحن وهو يمر مسرعاً بالقرب من رجل ينام القيلولة على جانب الطريق، أو بجانب رجل دُعس للتو. فرقٌ بالكاد يلاحظه سائق ناقلة الشحن، بين رجل يتمدد ليتشمس وبين رجل آخر في المكان نفسه ميتاً ذهنياً. يوم أحد رائع نمضيه!!.

على صدري عقد الفيروز المتصدئ باللون البرونزي، والأرض الخريفية دائمة الدوران. نومي متقطع. ما زلت أشعر بالنعاس فقد سمعته للتو. أخرج من البيت، بلا حذاء، ولا أعود، هرولت بخطى حيوان حتى بلغت بوابة الحظيرة. أن يكون موجوداً هناك يعني ظهور الرغبة التي تخالج فمي. إنها الرغبة في البرق والسماء تستجيب. إنها الرغبة في نسيج العنكبوت الأبيض لتصبح البلدة على هيئة شاطئ. إنها الرغبة في حصان يمشي على مهلٍ ليحتك بي ظهره وأنا أركب عليه. إنها الرغبة في المراعي، في الدخول إلى بركة الماء الصغيرة، في ثمار الأشجار المتساقطة، في مستنقع ماء، في كل شيء يدعو إلى الإثارة. تجعلني الأشياء التافهة ثملة. إنها تقف هناك مقابل السياج المشبك الذي يحيط ببيتي.

أنظر إليها بينما تنظرُ إليَّ، لكني أعلم أنني سرعان ما سأذهب بعد ذلك لأتقيأ على طول الغابة المكتظة بالأشجار. أنظر إليها وأعلم أنني سرعان ما سأمتلك بعد ذلك منقاراً وريشاً ومخالبَ. في بداية الأمر وكما يحدث دوماً في البداية، لا أعلم إن كان يجب عليّ طردها أو تصويب جرافة الحديقة المسننة بصدرها، لكننا كما لو كنا نضيء السماء السوداء ببريق فضي، رحنا نتبادل القبلات. كان زوجي غارقاً في نومه وطفلي الصغير كان قد سقط من فراشه. ثمة حجارة صغيرة تنزلق إلى الهاوية.

كانت لكل شيء بدايتان متزامنتان: البداية الأولى حلمٌ مؤذ، والثانية مجموعة من الواقي الذكري وجدته في صندوقة قفاز السيارة وقد ذابت بسبب شمس ذلك الصيف الجهنمي الملتهب الأخير. سارت الأمور جميعها على مجراها لكن بتلقي المواعظ وإثارة الشكوك وتقديم الأدلة. نأكل رؤوس بعضنا، ننقر رؤوس بعضنا البعض كما يحدث في مصارعة الديكة بينما تمر طائرات عسكرية من فوقنا لتجري التمرينات. تتدرب من أجل حرب كانت قد انتهت. وتدور بين الحين والآخر إحداها حول نفسها في السماء فيما يتراءى لي جناحها وهو يدخل وجنتي.

يوم أمس حلمتُ بأنني وجدتك في الفراش مع جارنا، بالإضافة إلى ذلك لا أستطيع أن اتذكر أحلامي أبداً. رحت أبكي طوال الصباح، قال. انظري، هذا ما يحدث. حسنٌ، لقد وجدت مجموعة من الواقي الذكري في صندوقة قفاز السيارة، ماذا كانت تفعل هناك؟ أم يبدو أن السيارة مكان مريحٌ لإقامة علاقة؟. إنكِ لا تجيبني على سؤالي؟. ذلك لأنك لم تسألني. لقد قصصتُ عليك حلمي. هل تريدين أن تقولي لي بأنه حلمٌ وحسب؟ لا أعلم عن أي جار تتحدث؟. الجار الذي ظهر في منتصف الليل، الذي يقود دراجته اللعينة كل يوم. لا أعلم. يقولون بأنه يجب إنكار كل شيء حتى وأنت في مواجهة الأدلة. أن تصل الأمور إلى هذا المستوى، فسوف أنكر من أكون أنا. ما هي مشكلته؟ وما الذي يريده؟ وأي أحد يريده؟ في المرة القادمة سوف أخرج اليه وعندئذ سأسأله بنفسي. وسوف نرى ما الذي يريده. فلدي شكوكي كذلك، أتعلمين!!. ومن منا لا يمتلك شكوكاً!! الشكوك بماذا؟. هيا أخبريني وحسب، من غير لفٍّ ودوران من هو؟ لا أحد، قلت، ثم أدرت له ظهري. لكني كنت أشعر بنظرة عينيه مثل سكين يتسلط على رقبتي كلما كان يقترب مني، لا تظني بأني أبله، أفهمتِ. تابعت وأنا أقول كلا، كلا، لكن شعره الأسود كان يقتلني بالسم. كان

تقليدياً. ندخل نحن النساء هناك، متحفيات، وعاريات، ونغلق الأبواب خلفنا. في غابة لها عالم خاص نتخفى خلف أشجارها. لن أغضب إن أخبرتني، أردت أن أعرف وحسب.

لكن ماذا عسايَ أن أخبره. وماذا يمكنني أن أقول؟ هل أخبره بأنه دخل بي كما تدخل الحية في فم التمساح؟ أم إنه دخل بي مثل حية تبلعُ طائراً ما، وتشعر بثقل حجمه وهي تزدرده ببطء؟. أفرد لنفسه حيزاً بسكينه المعقوف. هل أنا على وشك إخباره بذلك؟ ما إن أصبح بداخلي حتى سمع صدى صوتي، ليقتلني من داخل جسدي الغارق في الظلام.

يبدو لي أنه انتبه إلى الأشياء السيئة التي كنت أفكرُ فيها، لأنه وبحركة خرقاء منه أمسك بذراعي بقوة وغرس أظفاره فيها. إنك تؤذيني، قلت ذلك وأنا أسمع إيقاع الأغنيات الحزين. قولي لي، ماذا يحدث؟! لكن لا أحد يريد معرفة الحقيقة أبداً. لا شيء يحدث. كاذبة ومزيفة. قولي لي فحسب أنك ضاجعتِه وبعدها سأتركك بسلام، أقسم لكِ. وكلام طويل طنان عن شعوره بالغيرة، البلا بلا بلا الذي يدمرعلى نحو متزامن مَن يشعر بالغيرة ومَن نشعر عليه بالغيرة. ثم يطلق لنفسه العنان بحرية للركلات والضرب، ونعتني بالبلهاء والقذرة، والمجنونة والعاهر... وإلى آخره من التفاهات. حتى ركضت خارج البيت، ولأول مرة أرتطم بالزجاج مباشرة. كُلي حمراء يغطيني الدم، اجتزت المراعي.. كانت كما لو أنها مروج تكسوها الحشائش، وفي الطريق شاهدتُ مصادفة أرانب وبوماً، أو أنها هي من كان يلتقيني مصادفة. ثم رميتُ بنفسي في مغارتي بين الأشجار المشذبة، كما اعتدتُ أن أفعل ذلك في فراشي. يبدو لي أن زوجي بحث عني وبعدها تعب ثم بدأ يدوخ. بقيت مرمية على الأرض، وجواربي رطبة، ومازال جسمي مطلياً بطبقة كثيفة من الدم البارد الجاف، وبارتعاشة أخذت تزداد بي.

وعلى هذا النحو حلَّ ليل طويل، وأنا أنظر إلى القبور حتى ارتفعت الشمس في السماء. مشطتُ شعري ونمت أسفل انعكاس ظل شواهد

القبور. أقرأ أسماء الأموات الذين لا أعرفهم. تلك كانت حياتي أو هكذا ستصبح حياتي منذ ذلك الوقت فصاعداً. عندما أمارس الحب أحتفل بذكرى ولادة الغائبين. عندما أقع في الحب، الآن، في اللحظة هذه عينها، وبينما أرتجف، أهيل التراب فوق التابوت. لا يهمّ لمن يكون. وعندما أمارس العادة السرية أنتهك حرمة المدفن، وعندما أهدهد صغيري أقول آمين، وعندما أبتسم أنفصل عن جهاز تنفس اصطناعي. وبالتالي القبلة، لأنه في كل الأحوال، ومنذ وقت طويل، حتى قبل أن أولد، وإلى الأبد وبينما سيمشي زوجي ويصرخ من الغيرة، وإلى ذلك الحين سأكون ميتة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منذ أيام وهم يعالجون جروحي. لا يمكنني النظر إلى جسمي بالكامل، لكنني أصبت بجروح في عظم الكتف، وفي صدري وفي بطني ورقبتي وفي جميع أجزاء جسمي. إنها جروح صغيرة ليس إلا. يأتي كل ممرض جديد ليستغرق ثلاثين ثانية بالكثير في النظر إلي من دون عمل أي شيء ويسمحون لي بأن ألاحظ كل شيء. هذا كل ما في الأمر. لا أدري، قلت، لكن لا بأس. يوجهون الضوء على سريري ويخرجون قطع الزجاج الصغيرة والوريقات والشظايا. يخرجون من جسمي قطعاً مزججة ومرايا صغيرة وتويجات الأزهار والرقائق الزجاجية. في بادئ الأمر كانت قروح صغيرة وفي اليوم التالي أو الذي بعده، ظهر لمعان ما صغير، أعطوني علاجاً مسكناً للآلام ومسحوا جروحي بالمطهرات. نقلوني مباشرة من المرعى وكنت فاقدة الوعي.

كانت هذه المرة الأولى التي يغمى فيها عليّ وأغيب فيها عن العالم. يفترض بي الآن أن أمشي ببطء، عليَّ أن لا أفكر البتة في الجري أو رفع قدمي إلى الأعلى إن استطعت. أصبح مشط قدمي الآن يشبه حماراً وحشياً. لا تعودي ثانية إلى بضع ندب جروحك، قالوا. يبدو أنه أمر مألوف للغاية لدى المرضى، حالة من الإصرار على عمل ذلك. دخل زوجي وهو يقول: طق طق ويحاول أن يخبئ وجهه خلف الزهور. قبلني وهو يتجنب الجروح التي كانت تقطع وجهي والتي لن تبقى فيه لتستحيل إلى ندب. ثمة شيء يخطر ببالي وينبغي عليَّ قوله، هو أني لم ألمسه، لم ألمس شعرة من رأسه. لا أعلم عن أي شيء تتحدثين، قال. ذاك، عنه، ولا شعرة واحدة. حسنٌ، لا أعلم، أجاب. وأنت؟ أخبرني ما الذي تفعله قطع الواقي الذكري هناك؟ ما الذي تريد أن تفعله كل مرة وأنت تذهب إلى «ماك دونالدز» بدلاً من أن تأتي مبكراً إلى البيت لتكون معنا. حركة

لطيفة، قال. إنك تتعلمين، وأخذ يربت عليَّ، لكن بالضبط على الجرح الموجود في رقبتي تماماً.

انتزعت مرة وألف مرة العشب من الأرض وأنا أمزج بيدي الأخضر مع اليابس، والتراب مع دود الأرض. لوحة ألوان رائعة لعمل رسمة للقبور. رحت أنتزع وأنتزع الأعشاب وبدني يرتج. إلا أني لم أهدأ. ركضت مسرعة إلى البيت، ودخلت إلى غرفة النوم وقذفت بالكرسي الخشبي القديم إلى المرآة ثم بضربة واحدة اقتلعت باب الخزانة وبالضربة الأخرى جناح النافذة. مبيضاي يعتصراني ألماً، وثمة دم متخثر في سروالي الفضفاض الذي يضيق عند أسفل الساقين أخذ يتسرب من بين ساقي. هو ليس حملاً آخر، أعتقد، بل إنه حالة الغضب. كنت أركض وعضلات جسمي متشنجة، وجروحي تنزف. لم أمارس تمارين رياضية أبداً.

عندما كنت في المدرسة ألقيت بنفسي من منصة القفز لأسقط في عمق الماء من دون أن أحاول العودة إلى سطحه، وفيما كانوا في الخارج يؤدون التمثيل الصامت المثير للرعب، كان أصدقائي يصرخون: اتركوها تغرق، لتغرق!! أين هم الآن؟. أضغط على ما تبقى من الدهون المتراكمة على كرشي بسبب الحمل، ويخطر ببالي أنه حمل فقدته، لكن لا، لا علاقة لذلك بالحمل. إنها البقايا الموجودة في جسمي.

يقطع زوجي الحطب وبقربه طفلي الصغير في العربة. أسمع صوت المنشار. يثبت الطفل نظراته على الخشب الذي يتقطع ويتحطم، ينفصل عن الجذع ثم يسقط. الطفل ينظر إلى أمه وهي تتحطم، وهي تتفت بالتدريج. لكنه يبتسم عندما يشاهد شظايا الخشب وهي تتطاير في الهواء ويظن أنها ندف ثلج داكنة اللون تتساقط من دون أن يقلق بشأني، يشعر بالفرح ونحن نستعد للشتاء. لا بد أنه يظن بأن لديه أماً طبيعية كي يريها أولى رسوماته عن الحديقة. ثمة شجرة إلى جانبه كانت سابقاً مليئة بالحياة لكنها الآن هزيلة. لم أقف بعيداً عنه أبداً.

جسوم صغيرة فاقدة وعيها. رأس بائرة. أمي، أنا أركض لأرمي نفسي من بئر من المطر إلى الحقول ذات الأشجار العالية غير المشذبة حيث يبقى جسدي لسنوات طويلة غير قابل للاكتشاف وستكون حقيقة قضائية. رائحة فمي التي تشبه رائحة فم جاموس تخنقني. يمكنها أن تلوث بشكل كامل الشبابيك الزجاجية ونوافذ القلاع، والمدن التي تتلألأ بالأنهر الضيقة. أنا بهيمة تتنفس ببطء وثقل وتخرج هواءها الكريه على الآخرين.

كنت أنظر إلى الليل فيبدو لي مثل صندوق كبير بقفل. أبحث في السماء الكثيفة عن الصدع الذي يخفف عني. ماذا تريدين مني؟ قال زوجي. ما الذي تحتاجينه الآن؟ هل ثمة شيء يمكنني عمله لكِ؟ ثم يضعني أمام وسادة كبيرة. لكن وسادة كبيرة لا تصل إليّ. أضربُ حبة أناناس في الهواء ليخرج زوجي راكضاً وهو يحمل قفازي ملاكمة أحمرين يحتفظ بهما منذ أيام مراهقته. يلبسهما لي، أتوجه له كحمقاء بلكمتين متقاطعتين وأضربه على أنفه ثم أخلعهما من يدي. لا أريد قفازات ملاكمة ولا خاتم. لا أريد لباس الملاكمة الواقي للصدر، أريد أن أرى يدي وهي مصنوعة

من عظام تطلق النار في كل اتجاه. ضاجعني، صرختُ عليه بصوت بدا لي كأنه نباح كلب. ضاجعني بأي حال من الأحوال. لكن ما كنت أرغب في فعله عندما كان يقترب مني منتصباً هو أن ألتهم أزهاراً سامة، أو فطراً ساماً وأحجاراً.

بعدما انتهى هذا اليوم الطويل المبهم والعاصف. رمى بي على السرير، الصغير ما زال في عربته مقابل الأخشاب المقطعة، كان يمد جسمه ليتمكن من الوصول إلى المنشار ليمسك به. فتح ساقيَّ. وأخذ يلامس أجزائي الغائرة بأصابع يديه المتصلبتين. الرغبة هي آخر شيء يكمن في صراخي.

وبينما كان يغمد قطعة لحمه في ثقبي، إن كان ذلك حقاً ممارسة للحب، شعرت برغبة في أن أكون بغرفة بيضاء يدخلها نسيم البحر، وبطعم الملح اللاذع في لساني الذي تقطعه الجروح، وبشخص يعالج عيني، ويروّض نظرتي ويتركني إلى الأبد في مكان أكثر هدوءاً من هذا الإسطبل. والرجل الآخر ذاك يحفر بداخلي، كان يبحث بداخلي. لأنه ثمة شيء ما يوجد بداخلي، لكن لا أحد يجيد الحفر. حتى هو. عندما تقلص زوجي وخرج مني، شعرتُ بقلبه الذي كان يخفق. ومع أنني ضربته، إلا أني أحبه. بدأ المنشار يتحرك إلى الأمام.

لا يهم إذا ما أمضيت الصباح بأكمله وأنا أفكر بالطريقة التي أترجم حالتي وأنا في معتزلي. ولا يهم إذا ما مشيتُ على امتداد النهر الراكد المتسخ المُخضَّر وتجول في ذهني ألف كلمة من غير أن أعثر على واحدة صائبة. حماتي وهي على بعد مسافة مني وتحمل سلطانية تضع فيها مزيجاً من طعام الدجاجات، اعترضت عليَّ لأني لا أقوم ببعض من التمارين الرياضية: ماذا عساك تفعلين طوال النهار وأنت تتمشين جيئة وذهاباً. بإمكانك الذهاب إلى حلقة من دروس اليوغا المجانية التي تقام في مركز البلدة، وسوف أهتم به في هذه الأثناء بدلاً عنك.

لن يحدث أمر كبير إذا ما فكرتِ في إحدى سوناتات شكسبير، أو إذا ما قلّبتِ الأشياء في وعيك بحثاً عن دقيقة تكونين فيها حرة وتفشلين في العثور عليها. لا يهم العقل ومراجعته ودراسته وفحصه لرموزه وحماسه. ما يهم وحسب هو ماذا تفعلين، وإلى أين تذهبين، وما تشغلين به نفسك. إنهم في نهاية الأمر مثل جيراني الذي يحجرون أنفسهم خلف الجدران الخشبية غير المطلية. هؤلاء الغجر الخارجون مباشرة من عالم وحشي، لا قيم تحكمهم، ولا قانون، بعيدون عن المحال الحديثة بأضوائها الكهربائية، وعن موسيقى البوب، وعن الديمقراطيات الرأسمالية وعن إلغاء قانون الإعدام. ميليسا ابنة الثلاثين عاماً ذات الوجه الخمسيني، بفمها الدقيق المغلق كأنه شق، وبشعرها الطويل النحاسي اللون المثبت بخصلات تلتصق مع بعضها وتسمح برؤية جلد جمجمتها مما يجعلها تبدو وكأنها دمية مثيرةٌ للرعب.

ابنة ميليسا ذات الاثنا عشر عاماً، جاكلين، فقدت عذريتها في البيت المهجور المجاور للبحيرة، ذلك البيت الجحري القوطي المثير للقلق، وهي ترفع تنورتها وسط أصوات أنين سكرانة. من المؤكد أنهم ملؤوا بطنها بالعظام، تلك الأرنبة التي تربت وولدت في هذا العالم الشحيح ذي المقاهي القذرة التي تمتلئ بالمرفهين، والعاجزين عن الحركة، الذين يرتدون بذلات الكتان وينتعلون المداسات المصنوعة من القنّب.

من أين أتيتِ؟ ماذا ستفعلين غداً؟ في أية ساعة نهضت من الفراش؟ هل أجريت تمارين التلفظ؟ والمفردات؟. وأنت على هذه الحال لا يمكنك أبداً اجتياز مقابلة العمل. إلى أين تذهبين؟ سمعت السؤال بينما دخلت الغابة وأنا ألهث. فرسٌ تحمل ثقلاً لا يمكن لها أن تتحرك بمزيد من البطء. وفي تلك الساعة رأيت بأن الهواء كان مشبعاً بنوع من الشد المثير للجنس غير المرئي. وكأنها لوحة لرامبرانت. تسقط قناني الخمر وتسقط ثم تسقط على نحو شديد البطء وشديد الثقل من أعلى الشجرة إلى الأرض، تبدو وكأنها نائمة في الهواء الذي يقطعه شعاع ضوء مذهب. كأنها لوحة لكارافاجيو.

تلك الغشاوة، وذلك الهواء الوسنان وأنت ترى الأوراق تلف مرة واثنتين وأكثر قبل أن تصل تسقط ورقة وتسقط الأخرى وبعدها الأخرى.

هذا المناخ الذي يجعل الفم نصف مفتوح. الذي يحيل اللعاب إلى ماءٍ بطعم حلو. وداعاً للطحالب وداعاً للسواد. كان موت الصيف يحيل الغابة إلى عالم من صمت وأنفاس. ألقيت بنفسي على أحد جوانب الطريق ونمت. وحلمت بأنها تمطر رذاذاً. لكن لا، ثمة جلبة كان يثيرها رفيف أجنحة الفراشات التي كانت تصطدم ببعضها البعض. ذلك الإحساس الخفيف بالشهوة الذي ينتاب الفراشات الليلية. كانت دقات قلبي ترن في أذني. انحنيت كي أرى صغيري ونسيتُ أنه خرج مني. طاب نهارك، طفل الغابة. نظر إلى خنزيري ماء كانا يتزاوجان وسرعان ما جعل يقلدهما وهو يحرك عجزه الصغير. أصبح ابني الصغير يمارس الجماع، كان حيواناً مثلهم.

إن كان العوم في الهواء يعني شيئاً ما، فإن النظر في عينيه كان أكثر الأشياء شبهاً بالعوم. ظهر الأيل بالضبط لحظة أسدل الليل ستاره. كان يقف بعيداً، بين الغابة والحديقة. يمكن رؤية قرنيه المتفرعين كأغصان من البيت، كأنهما شمعدان يهودي. تلك النظرة هي لحظة مازالت مستمرة إلى الآن. أدار رأسه وبانت حدقتا عينيه، لقد أصابني العمى الآن. كان الطفل بين ساقي مرمياً على العشب. قبل أن يفر هارباً، ألقى الأيل برأسه إلى الخلف بسبب ثقل قرنيه ثم فتح فمه ليبدو على شكل الحرف U وبدا أنه كان يعوي، أو كان يهذي وبدا أن فمه كأنه قبر. تمرغ الطفل في التراب، وخرج الحيوان من المشهد. لكن بقيت عيناه عائمتين في الهواء وكذلك خواره. عندما كان سواد الليل الحالك يحجب الرؤية عن كل شيء، لم تكن هناك جهة أمامية أو خلفية يمكن تمييزها، عدت مع طفلي وهو يمسك بشعري وأنا ألمس العشب كي يتسنى لي معرفة إلى أين كنت أذهب. كان أنفه الرطب يقطر عليَّ، استدرت كي أنظف أنفه وكتفي. وانتهيت بأن أدوس على جمرة تشظت بها قدمي.

بعد أن تعب زوجي من الحوادث المنزلية التي أتسبب بها، وفّرَ عدداً من خزانات الإسعافات الأولية، وضع واحدة في الحمام وواحدة في الصالة وأخرى في المطبخ. ها قد اكتوت أناملي، وفتحت رأسي، وأصيب كل جزء في جسمي بالجروح. خرج بعد أن استحم شاحباً وعارياً. كان قاسياً وحزيناً. ليست لي رغبة في عمل أي شيء، ولا حتى مشاهدة التلفزيون، قال.

أشرت له بإصبعي شديد الرشاقة: «فاك يو» ثم ذهبت خارج البيت، ووقفت خلف الباب الزجاجي الذي يعمل بالسحب والذي أصلحوه للتو. تركت الطفل بالقرب من الموقد. كنت أنظر إلى الداخل، إليهما، شعرت بأنني مثل العنكبوت لحظة يضربه الماء. كنت أراقبهما وأنا أموت من البرد. يبحث زوجي عن منشفة، يضعها على الكرسي ويجلس عليها ثم يترك نفسه لينشف. تنزل المنشفة تدريجياً ويصبح جلده برتقالي اللون. يحاول طفلي النهوض وهو يمسك بالهواء ويسقط مرة، ويسقط مرة أخرى على حفاظته. أنظر إليهما ووجهي ملتصق على الزجاج، أنفاسي تمحوهما، تلغيهما من حياتي. إنه يغني الآن، والطفل يزحف نحو الموقد وفي غضون ثوانٍ سيحتاج إلى خزانة الإسعافات الأولية. أراهن على أن أباه لن يتحرك. كنت سأصبح مليونيرة لو أعطوني جميع الأموال التي أربحها في الرهانات... الرابحة في الرهان هي...

وضع الطفل يده على الجمر، كان ردة فعل الأب كردة فعل جورج بوش إزاء البرجين التوأمين. شاهدته وهو يخرج راكضاً للبحث عن ضمادة ومرهم مضاد للحروق والمنشفة تحيط خصره. سقطت منه المنشفة. لا يعرف كيف يهدأ الطفل الذي لم يبكِ ولم يصرخ، ليقطع

الصمت الذي كان يسود البيت بالهمهمات. وضع له مطهر «المرثيوليت» على راحة قدميه وكفيه. بدا دمه مثل الرغوة. إنه كائن نشأ خارج الأرض. طفلي الصغير الأحمر الثوري. لم أدخل إلى البيت لأني امرأة هامشية، لا أجيد التحدث إلا وأنا أطلق الشتائم، أتجسس على بيوت الناس، ولم أستحم منذ أيام. رأيته قادماً باتجاهي، باتجاه الزجاج، ينفث الهواء بقوة من أنفه. أنا أعلم أنه عندما يسحب الباب ليفتحه سأصبح إوزةً سوداء، وعندما يبدأ بالصراخ سوف أصبح بطاً مخصياً. حسنٌ، سوف أدخل. سوف أحاول طلب المستحيل، سوف أحتوي جنوني. سوف أستخدم الحمام، سوف أضع ابني في فراشه كي ينام وسوف أقوم بمداعبة زوجي، وسوف أؤجل ثورتي من أجل حياة أفضل.

أردت أن ألدَ طفلاً غير معلن، بلا سجل، بلا هوية. ابنٌ بلا وطن بلا تاريخ، أردتُ ولادة بلا لقب وبلا حالة اجتماعية. ابنُ خطيئة. لم يولد في صالة ولادة بل يرى النور من أشد زوايا الغابة ظلمة. لا يسكتونه بمصاصة الأطفال الرضع بل تهدهده صرخة حيوان. إن ما أنقذني في هذه الليلة وفي كل ليلة لا علاقة له بالحب الذي أشعر به حيال زوجي أو حيال ابني. ما أنقذني هو عين الأيل العسلية، عينه التي ترسلُ إليَّ نظرتها إلى الآن.

كان الطفل يبكي بتشنجات مزيفة. وسقطت من السماء قطرات من الماء، ولم يفعل الكلور شيئاً كي لا يتأكسد حوض السباحة. أصبح انعكاس الضوء الآن أكثر كثافة، كان يرسم الأشجار الملتوية بنباتاتها الطفيلية. ربطت ابني على جسدي وكنا مثل كنغر ورضيعها نعدو مسرعين على امتداد الأرض المزروعة الممتلئة بالأشواك والنحل والأزهار البرية. نجري فوق الأكوام الترابية التي تركتها الطفيليات الأرضية مقامة في حديقتي. كنت أمشي فوق مستودعٍ كبير يضم مئات بل الآلاف من دود الأرض. قفزت وأنا أحمل كنغريَ الصغير كي أسحقها بقدمي. شعرت بألم في كعب قدمي، وبينما كنت أعدو مسرعة صوب العشب الأخضر الكثيف، أخذت أنتزع حشرات السوس والقريص من جلدي وأسرع وأنا أطأطئ رأسي بإيقاع منتظم، مما كان يمنح طريقة عدونا شكلاً مضحكاً، شكلاً يشبه الطريقة التي يتحرك بها القرد. عندما وصلنا إلى الغابة فككت رباط طفلي، وتركته يمشي ليذهب وهو ينحدر إلى الأسفل. بعد دقيقة من ذلك اختفى عن نظري. ركضت وذراعاي تعومان في الهواء، بدأت الكلمات تتطاير من فمي. سمعت صوت إطلاق نار والتفتُّ بالحبكة الساذجة نفسها التي يفعلها الغزال «بامبي» في قصته التي ظهرت في الرسوم المتحركة. وجعلت أصغي بتركيز، ما الذي قد يكونه هذا الصوت المدوي؟ أين الصغير؟.

كانت دقات قلبي تزداد سرعة، إذ ظننتُ بأني سأراه ملطخاً بالوحل بين الأوراق المتساقطة. بعد ذلك بحثتُ عنه تماماً كما تفعل أم تبحث عن ولدها. لم أبحث عنه وأنا أركض أو أمشي، لم أبحث عنه عبر فعل جسدي. وجدته مستلقياً على أغصان عالية للغاية كنت سأتسلقها أنا أيضاً لو كنت مكانه. كان يشير لي بيده وهو يقول كو-كو ما- ما. بالكاد كان يمشي وقد تمكن الآن من تسلق شجرة. لقد أنجبت حيواناً صغيراً متوحشاً. صعدت إليه وبقينا يحضن أحدنا الآخر. من الأعلى رأينا الماء ينعطف من مكان إلى آخر في الغابة التي استحالت إلى غابة أشجار وحشية كبيرة. رأينا جماجم صغيرة للأرانب، وشهدنا أيضاً موت أحد أفراخ الحمام الصغيرة، وهو يسقط من عشه. كان منقار أمه الأسود المسنن مفتوحاً بطريقة مثيرة للرعب.

أعطيت صغيري ماءً تختلط به الشوائب من المستنقع كي يتذوقه. ثم ناولته تويجات أكثر الزهور ألواناً وشذى كي يأكلها، وأوراق النباتات ليقضمها كي يشرب عصارتها. حاكينا أصوات الحيوانات وكنا جزءاً منهم. ردت علينا طيور النهار والليل بأصواتها فكانت تلك الصرخة الحادة التي يرجع صداها حزيناً في منتصف الصوت. ذلك الحرف الصوتي اللطيف «آآآ» الذي يستحيل إلى حرف صحيح مبحوح، خائف «أوخ». الطير الذي يصيح وما هو إلا طيرين. طيرٌ صاحٍ وآخر مجنون. طيرٌ رقيق الطبع وآخر قاتل. أدخلت ابني لأضعه في الماء المتجمد وبدون رغبة مني عمدته. ليغفر الله لي. شاهدت بأنه شديد البياض لكي يكون كائناً حقيقياً. لم يكن طفلاً بل كان لوحة، أو تخطيطاً لطفل، أو موديلاً للرسم. لقد أصابني الفتور، كالبهائم التي تلد مخلوقات ميتة منتصف الطريق وتبقى هناك لأيام بعد الولادة ترفسها كي تبعث فيها الروح مجدداً، نفضته وأنا أهزّ جسمه بقوة ثم أعدته إلى لحمي الأحمر. في منتصف الليل عادت إليه الحياة. وانتهت الساعة ونحن بين الذئب والكلب. وجاء دور الخفاش. دفعته بقدمي، تكلمت إليه، ما زال طفلي يلهج بأنفاسه.

الطريق يحيط بنا وعلى مسافة أبعد تحيطنا الأسلاك الضوئية التي تبدو بشكل بقرات بيض بقرون صغيرة. ثمة أصوات تقول أسماءنا التي قد نسيناها. وتبحث عنا. الكلام فارغ أو كو- كو ري- كو - يعنيان الشيء ذاته. حسنٌ يفعلون في غلق أفواههم. إذ ستسخر منها الحيوانات. يقف الأيل محنطاً، عيناه كما الزجاج. إنه هادئ بطريقة مثيرة للمشاعر. أجل، إنه هو رجُلي، الذي يعرف كيف ينظرُ إلى حزني الأبدي. أما الآخرون فهم بالكاد رجال. بماذا ينفع أن تكون واحداً منهم إذا لا تصلك اللغة التي يتحدثون بها إليك. وفيما يتعلق بزوجي فهو يعاني نقصاً في الإنسانية، هذا مؤكد، لكن مَن يحتاج إلى الإنسانية؟. يرمي ابني بالكمأة السوداء إلى أذنه المثلثة، إلا أن الأيل لا يضحك. توارينا خلف مشهد الطبيعة، غطينا جلدنا بالتراب والأعشاب الخضراء. كانوا يصرخون بصوت شديد القوة. إنهم جيراننا يحملون مصابيح كبيرة يريدون إبعادنا عن مخبئنا المحاط بالأشجار الكثيرة. إنه بابا. نصف العالم هناك في الأعلى لكن لا أحد منهم يصنع لنا معروفاً. حشود الناس تتسبب بإيذائنا، إنه ألم يَخِز الروح.

رن الهاتف، تركت الطفل وحفاظته تتدلى إلى الأسفل وفكرت أن أجيب بكلمات قليلة أو بلا شيء. مرحباً، مممممم، حسنٌ، حسنٌ. نعم. إلا أن نبرة صوتي بدأت تفصح عني، تمكنت من أن أقول: وكيف هي العائلة؟ أو، هل سمعت بأن ثمة عاصفة هائلة قادمة باتجاهنا؟ إنها نبرة صوتي دوماً والطريقة التي أحدق بها، وأطرف بها جفنيَّ. لساني جاف أو مبتل. سمعت صرخة، إنهم يقتلون ابني أو إنهم أمسكوا برقبة عجل. ثمة شيء يحدث في الخارج. ثمة مجزرة أقيمت هناك خارج البيت. لكنها الآن أصبحت هنا داخل البيت. أخذ زوجي يقترب وكنت أعتقد بأنه أخيراً سيلمسني في هذه المرة. كنت أبتلع ريقي، لكن لاشيء ينزل داخل جوفي. لقد أخذ كل شيء لقد تركني بنصف فم، فم متحجر، فم بنفس كريه.

كان زوجي يسمع كل شيء من خلف الباب، الكاتب المسرحي لحياتي متوسط المستوى. بالمقابل طلب مني أن أغلق الهاتف وأن أترك الطفل لدى جدته حيث يكون بإمكاننا الخروج الآن للتدريب على قيادة السيارة، وأن عليَّ الحصول على رخصة القيادة بسرعة، وأنه لايمكنني الاستمرار من دون فائدة تذكر، وأنه ماذا عساي أن أفعل لو احتجت الذهاب على وجه السرعة إلى مكان ما لو أصاب ابننا شيء ما؟. ففي تلك المناطق من البلدة لا تتوفر أمكنة كثيرة للأشخاص لكي يكونوا حمقى.

لدي إحساس بأنه ما إن أدخل السيارة حتى يشنقني بعجلة القيادة. إنك تحطمين الدواسة. ضعي الناقل الحركي على الرقم واحد، ضعيه إلى اليمين، ضعيه، صرخ. إنها ساعة المساء التي يترك فيها الذباب عيني الحصان بسلام بعد أن يعاني هذا طوال اليوم من العذاب في كل هدب من أهداب جفنيه. كان يحلق على شكل أرتال سود ودوامات داكنة اللون

تأتي لتترك الأحصنة وحيدة وعمياء. كانت الحيوانات تتبعنا بفضول. وبينما كانت عائلتي تستسلم تدريجياً إلى إشعاعات الخيانة، أضع يدي لأمسك بالسلك الشائك الموجود لفصل البهائم عن الناس وآمل أن يتفضل الحصان ويبدأ بالعدو بفكيه المفتوحتين لتفريغ رغبته.

حتى عندما أسمع كلمة طلاق وأوراق، أفكر بأنها كم ستكون تجربة رائعة عندما يُلقى بكِ على أرض أحد الأمكنة القذرة القريبة من مقابر البلدية، يحيطك بعض من بقايا الروث والتبن، لكن أن يكون فوقك جسداً يشعر بالجوع، هو جسد حي وليس بجثة، جسد وهو ليس سجين حرب. كم هو رائعٌ أن يعتلي بطنك رجل، رجل كامل، ساقان ورأس يعتلياني. ثمة رجل من البلدة نفسها يسير وهو يحمل بندقية فوق كتفه، إحدى الأشجار أثارت قلقه، كانت ملتوية فأطلق عليها النار وقتلها. تاتاتاتاتا، تمنى لو قاتل سابقاً في جبهة الحرب. جذع الشجرة تملؤه الثقوب إلا أنه لم يسقط. إنه يرتجف لكنه مازال واقفاً. زوجي جعل نفسه وكأنه لا يبكي.

الرجل الذي يعتليني كان يتحرك بالموجات، يمسك بي من رقبتي، وينغمرُ بي عميقاً، لا أفهم الخيوط الخفية التي يثيرها الشغف، الشغف الذي ما زال يثيرني. ستارة تُسدل. محامون وفجور عائلي باتفاق مشترك. أرقام وتواقيع وقوانين ووثائق. إلا أن ذلك لن يحدث. أبحث عن شخص ما يمكنه أن يقلقني مثلما سيفعل ذلك حيوان محتضر. عندما تجتاحني الرغبة أصبح بقرة رأسها مغمس بالوحل. وإذا ما شعرت بالرغبة فأنا أيل يدخل الغابة كما يفعل العريس عندما يدخل الكنيسة.

أتذكر عالماً لم يعد موجوداً. جزيرة يسكنها رجال يبحثون عن الجمال ويعثرون عليه في رحاب المعتزل حسب. أعترف بأني سادية. وأظن أنه لا توجد احتمالية بلا روح، مثلما لا توجد احتمالية دون أن تكون لها صورة أخرى. لكني لا أمتلك صورة أخرى. ولا روح. سوف أنقش العلامة المميتة على بطنكِ وسوف نغادر إلى أرض خصبة، ذلك ما وعدني به شاب عاشق. وماذا بشأنه؟ تلك الليلة كانت على مسافة مئة ألف ليلة والعاشق قد اختفى. ما زلت أنتظر ظهوره من بين الدخان الحلزوني الذي يخرج من فمي. وأنا أحمل الروائح الملتصقة بجلدي كأنها الروائح التي

تنبعث من وهج الحرائق، كأنها رائحة اليدين في ظل غير مكتمل، كأنها رائحة مؤخرة طرية، وكأنها رائحة حلق عفنة. انتهى وذهب الجميع. ما زلت أنا ساحرة صغيرة تنتظر السحر. مات جارنا بسبب جرعة كبيرة من الهيروين مات وابنه الصغير على ذراعيه.

أما جارتنا التي تُحكم غلق نوافذ بيتها فقد تلاشت بدخان نارها نفسه. ونفقَت الحيوانات قبل أن تولد ثانية. هذا هو حال الموت في هذه الأرض. وخلافاً لذلك، كان كل شيء عبارة عن سمر ونوم وقبلات مجنونة في الليالي المضيئة التي كنت أقضيها في الجزيرة. وعلى العكس من ذلك، في الفترة الذهبية التي عشتها، كل شيء كان لذة من الإثارة المتجددة. موجة كبيرة وثقيلة تجاه العالم تكبر كأنها برعم ينمو في داخلي.

لا أعلم ماذا يدور الآن برأس البهائم التي تشكل حلقة دائرية وتنظر إليّ بذهول، فكوكها منفصلة عن أجسادها. جلست وأنا أجثو على ركبتي. لو مر رجل من أهل القرى يحمل سلة ويبحث عن الفطر والفاكهة لاعتقد بأنني أمارس طقساً صوفياً.

من كان يتجسس الآن هي أنا، وعلى الدراجة الهوائية، زوجي في الطريق، هذا ما قاله لي على الأقل. ابني الصغير موجود بأمانٍ في بيت جدته. أنا متأكدة من أنه يتغذى على نحو جيد هناك وهي في مقابل ذلك تنتهز فرصة وجود أحد ما يبيت معها في البيت. داخل منزله، يحاول الأب تهدئة تشنجات ملاكه الذي سلب عقله. سمكته الصغيرة بلا حراشف. أسترق النظر إليه وهو يعتليها متمايلاً ويضغط على عظامها، محطماً عجزها. كانت عيناها تدوران بتوسل إلى أبيها. ما الذي يفعله الأب بابنته. كانت البنت تتذمر وتشكو ما يحدث لها. الأب يسيل لعابه. ذئبة صغيرة مسجونة ومدللة. يضغط الأب أكثر عليها. كان يشد بقوة جلدها الناعم، وينهمر عليها بالقبل. الجانب الأيسر من دماغها مسطح. كدماغ أمها. لا تتحدث، لا تمشي، لا تجلس. لا تبكي، لا تتناول الماء، لا تثبت نظراتها ولا تتظاهر بذلك كذلك. تنتهي التشنجات. وتغادر الكهربائية جسدها لتتركه مرتخياً. تستلقي الطفلة منهكة في مهدها، تخرج ساقيها وخصلات شعرها من بين قضبان المهد. عقلها الخالي من التضاريس لم يمنع جسدها من مواصلة طريقه نحو العاطفة المكبوتة، أو أن ينزف الدم في الحيض أو أن يتوقف عن الحيض. أراه وهو يضع عليها لحافاً من الريش لجعلها تبدو كطائر الدرّاج الذي تحيط رقبته حلقة من الريش الأبيض.

ما الذي يمكن أن تفكر به الآن؟ وهل ستتذكر ما فعله معها عندما ستمتلك ذاكرة؟ وماذا يمكن أن تقول في نفسها، وهي الآن بلا كلمات وبلا لغة تنطق بها؟ ما الذي يحدث في رأسها الذي لم يكتمل نضجه بعد؟ طفلة تعيش بحالة من الخرف. تصل بي رغبتي إلى الدخول عبر النافذة وضربه بقوة بقبضة يدي، رغبتي أن أنقض عليه وهو يقف هناك أمام الأنفاس الطفولية وأمام النجوم الضوئية الصغيرة التي تنير سقف الغرفة. رغبتي تغمض عينه، وعقلي الذي يفكر يدخل في سفسطته الرنانة أخذ يتداعى.

كان ينظر إلى الليل كما ينظر إلى صندوق قابع في أعماق المحيط. وأنا أختبئ مثل جرذ أسفل إحدى قطع الأثاث. ذهب خارج البيت لابساً الشبشب، كان حزامه مفتوحاً، وتوخياً للحذر أمسك بقطعة من الحديد قبل أن يذهب لرؤية ما كان يتحرك بين الأدغال. بدا وكأنه من سكان الكهوف، شعره مسترسل وساقاه منفصلتان ومقوستان، إنه أحد أعيان البلدة. تراجعت إلى الوراء ثم وقعت في حفرة. دمر الوحل أنوثتي. إنه يصوب على قدميَّ. كانت لديه رغبة في ضرب عنق ذلك الدخيل بهدف أن يشعر بأنه ذكر أحمق، أو رب لعائلة. على وشك أن يصرخ من الكهف. لمس بطني بقطعة الحديد وغرسها بلحمي الذاوي. بقيتُ مرمية في الحفرة، أردتُ أن أخلع تنورتي وحسب في غرفة تطل على النهر أو في غرفة أشعر فيها بأن النهر يندفع نحوي بصخوره الحادة. أردت أن تكون ساقاي فوق ساقي الأب طويل القامة، ذي العظام الناتئة، أردت أن أخلع تنورتي وألصق سروالي الداخلي بوجهه، وعجزي على حاجبيه، حتى أتمكن من جعل عينيه مصابة بالحول الشديد وفمه ورد يا. أشعر بأن حديدته بطول رقبتي.

لا وجود للحيوانات في الأفق الذي ينتهي عنده الحقل. جميعها جرفها تيار النهر. ذرات رماد خفيفة تغطي الهواء. عاد ليلمسني مجدداً وأنا أتحرك بعنف متضايقة لأدفعه عني. لكنه في النهاية، استسلم لي

وأنقذني وهو يشدني إلى الأعلى من متني الملطخ بالوحل. سمعنا عواء صغيرته آتياً من النافذة. «أيها الرب، امنحنا السلام فلا تستطيع الأرض أن تفعل ذلك». وأنا على ذراعيه رحت أسمع صوت الماء «بوا بوا بوا» أو «بفا بفا بفا» وهو ينقض على الساحل الصخري تارة، وعلى الساحل الإسمنتي تارة أخرى، انحدار بسيط يجعلك تنزلق إلى الشاطئ في أحيان أخرى.

إنها ساعة العشاء في الدير وفي الأرض الخربة. كان يقودني بيده صوب بيته، لكني دخلت وحدي إلى عُلّية البيت، لم أملك أدنى فكرة أين بقيت زوجته. في العُلّية سرير بسيط وكرسي وسجادة معلقة على الجدار طرزتها المرأة الأخرى. لا حاجة لمزيد من الأثاث. دخل وأغلق الباب خلفه بمفتاح من الحديد. في الطابق الأسفل من البيت سيعتقدون بأننا حيوانين من القوارض يرقصان رقصة الـ «تيكي تيكي تيكي». كان وجوده يبهرني. سحبني من رقبتي وأخذ يشمني. تركته يذهب إلى جسدي. فليحترق، فليصبح لونه أحمر. خلع ملابسه وألقى بجسمه عليَّ، بطوله ذاك الذي يصل إلى متر وتسعين. كانت قدماه تصلان إلى خارج المرتبة، أخذنا نشتبك ونقطع أوصال بعض. كنت أجد نفسي متجلية بضياء ينبعث مني مثل منظار يعكس أشكالاً وألواناً جميلة. فمي يستحيل إلى عدة أفواه. استدرت ثم تسلقت على جسمه كما لو كنت قطة، ولو قُدر لي لكنت قد ضاجعته كما يضاجع الذكور أمثالهم. جرذ يضاجع جرذاً آخر. أشعر باللذة، نسيتُ أين أكون. إنه ليس بنهار ولا هو بالليل، إنها ليست عُلّية ولا هو بالحقل. لكني قبلها ثبتُّ نظري في وجهه وفعلت المستحيل كي تعلق ملامحه بذاكرتي. لكن من الواضح أني لم أستطع. ثم يأتيني ضوء الصباح المعتم جارفاً كأنه تيار حيث أحدنا ينام داخل الآخر.

وهكذا نهض من السرير الضيق منتصف الليل، بينما بقيت أنا عارية. ترك لي ملاحظة لم يكتب فيها كلمات شعر. إنها بداية الرعب. لقد أمضينا ساعات كنا نعوم فيها في الهواء، لكن ما الذي يحدث في اليوم الذي يلي تلك الليلة. قفزت من الفراش وفمي متقشر. في الطابق السفلي، كان الثلاثة قد خرجوا للتسوق. كم مرة دخل بي وخرج، هل هواء العُلّية مصنوع من العسل؟ كم مرة تنتزع الرغبة مني ما لا أتحمله!!، فم التمساح مفتوح أكثر مما يمكن. النهر ينقض عليَّ وكنت كما الغصن اليابس.

قدتُ الدراجة وأنا أضغط على الدواسة لأقطع مسافة العشرين كيلومتراً المؤدية إلى بيتي وبي حاجة لأن أتقيأ. كنت أضغط وأضغط على الدواسة دون أن أنفصل عن الطعم الذي كنت أشعر به في لعابي. كانت الرغبة تطاردني على امتداد الطريق الخدمي اللزج ذي الرائحة المقرفة. أحتاج إلى علاج سريع بأشعة ليزر كي أتمكن من نسيان فكه، كي أتخلص من جبينه. من بعيد، وبين رزم القش الكبيرة، ثمة صبي لم أره أبداً كان يتوازن على العجلة الخلفية للعبة التزلج سكوتر، ويعلق بشفته السفلى عُقب سيجارة. ربما هو ابني سيصبح على هذه الحال في غضون بضع سنوات. ما زلت أضغط على الدواسة بساقي الطويلتين وأود أن أرفس الأرض برجلي كما تفعل الفرس وهي تكشر عن أنيابها.

مضت خمسة أسابيع وليس واضحاً أمامي ما إذا كان ذلك يعني لك شيئاً. كفي عن الحديث. هلّا تكفين؟ إنه لأمرٌ فظيع. خمسة أسابيع و35 يوماً و840 ساعة. لا يمكنني التوقف عن قص الحكاية. سوف تتوقفين، لأنني لا أستطيع الاستمرار على هذا النحو، وبالمناسبة لم تكن خمسة بل ثلاثة. أم إنك نسيت متى عدنا من الإجازة؟ إنها خمسة. كانت إحدى الليالي التي وصلتَ فيها من رحلة قمت بها، هل تتذكر!؟. اليوم الذي شاهدنا فيه آخر حلقة من البرنامج الذي يدور عن الرجال الذين علقوا في الجزيرة، لم أتركك، فقد ألححت عليك، وبعد أن تشاجرنا، كنا سويةً وضعنا المنشفة أولاً، وفعلناها على الأريكة. أتذكر الوضع الذي كنا عليه أنا وأنت وأتذكر كل شيء، بعدها انتهينا ونحن نتناول رقائق البطاطا. أعتقد أننا فعلنا ذلك في مرات أخرى. ربما في الطريق، ألم يحدث ذلك أبداً؟. لكن مهما حدث لا أريد إثارة النقاش بذلك. لا، لكن دعني أتذكر. هل ستشرحين مرة أخرى؟ لا داعي أن تشرحي. حسنٌ. ليكن. هل تودين ذلك الآن؟ مثلما تشاء، هل تود هذه الليلة؟ بالتأكيد. لكني لا أريدك أن تعتقد بأنك تصنع لي فضلاً. وهل فعلت ذلك مرة معك على سبيل الفضل؟ وهل يبدو لك أنني توقفت عن الانتباه إلى كم أنك جميلة؟حسنٌ، هل نفعلها قبل أم بعد تناول طعام العشاء؟ بعد العشاء سيكون أفضل. عند الثانية عشرة تقريباً. من المؤكد سيكون أفضل عند الثانية عشرة. بعد أن نضع صغيرنا في فراشه، لكني أكررها عليك لا تفعل ذلك على أنه فضل. حسنٌ، دعينا نشاهد الأخبار أولاً. يبدو أنهم يطلقون المزيد من الصواريخ مرة أخرى أو شيءٌ من ذلك يحدث.

لكن هل هي الصواريخ أم إنها الدقات التي تضرب قلبي؟. أن أجعله يفقد اتزانه وأعصابه ليس بالأمر الصعب عليَّ، لكن إذا ما أردت لأستطعت أن أجعله يضحك لثلاثين ثانية لكي أفعل بعدها معه أي شيء أريده. ربما هو تدخين أعقاب السجائر ما يجعل رغبتك في ممارسة الحب تبدو أقل؟ عن أي رغبة قليلة تتحدثين؟. كانت إثارة غضبه هي أسهل شيء أقوم به. عقب السيجارة الذي تدخنه يخرج ما بداخلك من رغبة. لا تتفوهي بالترهات. عقب السيجارة لا يخرج من داخلي أي شيء. إذن لماذا لا تشعر بالرغبة في ممارسة الجنس أبداً؟ أية رغبات عليَّ أن أمتلكها؟ ولكنه بعد أن دخن سيجارة بعد العشاء، وبعد رائحة بقايا الطعام المتراكمة في حوض غسيل الصحون، وبعد تناول القهوة، ذهبت للبحث عنه وكتفي مكشوف، قال بأنه مستهلك من شدة التعب، *أنا رجلٌ غارق في شهوته*، قال. أحسست بأن غرغرة تتناهى إلى مسامعي بعد أن أطلق ملء فمه سحابة دخان.

كانت لثته وشفتاه محترقتين بقطران السجائر حيث كنت أمسك أنفاسي لئلا ينتقل لي دخانه. بقيتُ أحوم، جلدي أملس أرتدي طقم سروال نسائي جديد بقطعتين، وكنت مستحمة كذلك. بقيت أنتظر لعله يحيط بي من خصري، لعله يلمسني، أو لعله يروق له أن يدفع بي على الجدار أو على الكنبة مثلما حدث آخر مرة منذ خمسة أسابيع، ليس ثلاثة، لو كانت ثلاثة أسابيع لكان ذلك أفضل، لأن أيام الإجازة غير محسوبة.

على هذا النحو سارت الأمـور. لم يحدث شيء. لا شيء على الإطلاق، وهذا ما جعلني أثور غضباً، وكأني أشحذ أسناني لتتحول إلى شفرات. شتمته ووصفته بالفاجر ورفعت له أصبعي الأوسط وأنا أردد «اللعنة عليك».

ذهبت إلى الحمام وأغلقت الباب خلفي، وارتميت على البلاط البارد. ثم وضعت قدمي في حوض الاستحمام، وكنت أتحرك بتشنج. لكن لا

أحد يتفرج عليَّ. أراد زوجي أن يتبرز. لن أدعه يدخل، انتقام صغير أقوم به تجاهه، ليتحمل. وأنا أتحمل كذلك، أنا حية تكتوي بلهب الغيرة، تتلوى بين حوض الشطف وحوض المرحاض. هيا، دعيني أدخل أرجوكِ. سنفعلها في وقت آخر، أعدكِ. إنه يساومني، ليذهب إلى الجحيم الآن. أتوسل إليكِ، إنه ليس بالأمر المضحك. وبعد أن تسلقت على حوض المرحاض، رحت أستعرض له كل شيء على أنه قضية وجودية بلمسات فلسفية- نفسية، وعندما انتهيت من مونولجي، قال: كل هذه الأشياء داخل رأسك أنت وحسب، ولم يقل شيئاً أكثر من ذلك قط. لكني بالتالي خرجت من الحمام، لأنني شعرت بالحزن عليه، ثم قبّلني بطريقة تافهة لم تنفعني كي أفرغ ما بداخلي من شحنات. كنت أحتاج إلى جاموس، لكنهم أعطوني خنزيراً قذراً.

دفعني، ثم أخرجني من الحمام. أسمعه وهو يتغوط، وأسمع صوت الماء عندما يسقط. انتظرته في السرير. كنت أقرأ شيئاً ما. لكني كنت أفكر في إرضاء جسدي وحسب، جسدي الذي يهيم وهو يتراجع إلى الوراء ويتصبب عرقاً. رميت الكتاب. ينام طفلي الصغير وجسمه ملتوٍ، ويسعلُ كأنه عامل تبغ في أحد مصانع كوبا. أصلحت وضعية نومه. وذهبت لأخلد إلى النوم.

ما زال زوجي في الحمام يلعب بهاتفه. انتهى بي الحال إلى نزع حمّالة النهدين، كان طرفها الحديدي يؤلمني، ثم غيرتُ سروالي الداخلي. دلّكت وجهي ثم وضعت عليه طبقة من الكريم المرطب. بعدها لم يحدث شيء.

أيقظتني عند الفجر صرخة صغيرة حادة، صرخة بوق. صوت صفير غريب. في الصالون كان الموقد قد انطفأت ناره. أنفخ لكني أنهض مغبرّة وتدخل ذرات الرماد في أنفي. أبصقُ وأعطس. كنت أشعرُ بالتحسس. ينزف أنفي. أحاول إشعال النار. الجلبة ما زالت مستمرة. إنهم يشتبكون هناك خارج البيت، الرجال مع الحيوانات. ثمة حادث اصطدام متعدد وقع بين شاحنة تحمل دجاجات وسيارة تقل عائلة نموذجية. أو أن كنغراً كانت تلد قطيعاً من الصغار الذين أصيبوا بالإعاقة من جراء ذلك. خرجتُ حافية. انغمرت قدماي بالماء، وتزحلقت على الصخور، رحت أبحث عن حشد الأصوات والهمهمات. ذهبت باتجاه الطريق البري، صوب الغابة، صوب الخلاء، إلى حيثُ سيتناسل السياح وهم يتركون فضلاتهم البلاستيكية الكثيرة من الواقي الذكري. تأتي عبر السماء المئات من الطيور تتقاطع مشتبكة فيما بينها. لا أحد يقودها في الطيران.

الشمال والجنوب مضطربان. الطفل يبكي في وقت حصته النهارية من الضجر، كابوسه عن الذئب الجائع الذي يدخل من النافذة الصغيرة. ينام من غير جهاز كشف الحريق في غرفته. وضعته في السرير مع زوجي. جعلتهما متعانقين، ثمة صوت للنوم ينبعث منهما ويتنفس كلاهما هواء فم الآخر. لا بدّ أن مخلوقي الصغير سيصبح من المدخنين. أخرجُ ثانيةً. تجذبني السماء لأول مرة. الطيور غاضبة مشوشة وترفع ظهورها المحدَودبة كما تفعل الثيران. ليذهب أحدها جنوباً وليتبعه بقية السرب وهم يصرخون. في الغرفة وجدت ابني أسفل السرير وهو يصرخ بشدة، يبدو أنه طير آخر. لا أعلم ما الذي نفعله نحن بصغيرنا المشوه، بلحمنا، بأحشائنا مجتمعة. إننا نتركه يكبر بين الشجيرات والعظام، يحك جلده، ينصدم بعنف. كيف تتركينه ينام إلى جانبي وكنت تعرفين بأني نائم؟

كيف يُعقل هذا، قال ذلك وعاد لينام. نمت بين زوجي وابننا. أنظر إليهما وهما يتنفسان. كان يطلق أنفاس النوم، أنظر إلى وجه ثم أعود لأنظر إلى الوجه الآخر. أنا في الوسط، بينهما، كانت ملامحهما تصيبني بالضجر. كان يثير ضجري أنني وبعد وقت طويل أمضيته وأنا أحدق بهما، لم أعد أميزهما.

في الساعة السادسة تماماً استيقظ الصغير من دون أن يهتم بأنه يوم الأحد، يوم الإجازة. ساعته الداخلية لا تخطئ. الضباب يغطي الحقل، كان يمكن أن يكون شاطئ بحر أو صحراء. كان يمكن أن يكون حلماً أبيَض، هذيان غير أنها كانت الحقيقة اللعينة. سرعان ما حل الشتاء لا شيء آخر يُرى سوى الحطب المكدس عند أبواب البيوت. سوف أرى في ما تبقى من اليوم كيف تتطايرُ ذرات الرماد المحترق. أمضيت الصباح وأنا أسبُّ الصغير وأشتمه. نعتّه بكل الأشياء المثيرة للتقزز. ماذا عساي لم أقله له، كانت شتيمة تلو الأخرى. فم أم قذر، يمتلئ بشتائم يكيلها لطفلي المسكين. آمل أن لا يعرف أية كلمة من تلك التي قلتها، وأن لا يعيد بعد ذلك ما تقوله أمه من أشياء لعينة أمام الآخرين. نظر إلي وقال: ماما، «بيس»، وأرسلته ليتبول لوحده، وأن يتناول الطعام بنفسه في الوقت نفسه.

بدأ هذا الأحد الشتائي على نحو سيئ. واستمر من سيئ إلى أكثر سوءاً ولم تكن قد بلغت الثانية ظهراً بعد. أشعر بالتعب من حقيقة أنه ليس من الصواب أن تسير وأنت تطلق النار في الجوار أو أن تكيل أم الشتائم لصغيرها. أمضينا النهار ونحن في حالة من النعاس بسبب الغاز المتسرب من الأنابيب. قالت إحدى الجارات التي ترتدي ثوباً مفتوح الأزرار: أعتقد أن هناك أنبوب غاز قد تصدع على نحو بسيط، وإلا لما تمكنا من معرفة هذه الرائحة العفنة. وأنا أعتقد أن زوجي ما يزال نائماً إلى الآن لهذا السبب أيضاً. وسيمُضي يوماً كاملاً وهو نائم. تمر بين الحين والآخر شاحنة تأتي

من بعيد. نخرج مع ابني إلى الحديقة العامة تغطي أجسادنا البلوفرات المصنوعة من صوف الخروف ويبدو هو متبرماً، في حين كانت أنفاسي تنقطع. ما يزال موقد النار مشتعلاً داخل البيت.

استيقظنا للتو من عطلة نهاية الأسبوع. كنا نتشاجر، صرخت في الثامنة والنصف أول صرخة. عند التاسعة وعشرين دقيقة هددت بالرحيل من البيت. عند التاسعة وخمسين دقيقة قلت بأني سأجعل من حياته جحيماً. عند العاشرة وعشر دقائق كنت لا أتحرك مثل خروف يقف منتصف الطريق. كنت أمسك بالحقيبة بيدي وأضع قبعة القش على رأسي والذباب يدخل في طبلة أذني. كانوا يتفادون الاقتراب مني، تمر الماشية بجانبي، وتتجنبني الدراجات الهوائية وهي على بعد سنتيمتر واحد، وكذلك الشاحنات المقطورة والكلاب العرجاء. كانت سيارات جيراني تطلق أبواقها المنبهة، إنهم يشتمونني إلى الأبد، ويصرخون بي: «هيا أسرعي» ابتعدي عن الطريق، فغادرت المكان.

يخشى الجميع أن يمضي ليلته في قسم الشرطة وهم يشرحون موقفهم، لا أحد يريد دفع الأجور إلى المحامي وزجّ نفسه في مواضيع قضائية. يهربون الى بيروقراطية القانون. أي شخص يرتدي زياً أزرق يعني أنه الشيطان بعينه. لا يهمهم أن يُقذف بي على أحد جانبي الطريق. ولا يهمهم أن يتضرج جسمي بالدم البُنيّ وأن يُلقى به على الأرض وأن تتباعد رجلي بين الخزان السابع للماء وقفص الدجاج. لا يهمهم إن طرت وتكسرت عظامي وهي تصطدم بصفيح مرآب. سوف يشعرون على الأكثر بالشفقة، لكن ليس عليَّ، لكون طفل تُرِك بلا أم. جميعهم يذكرون ذلك في السهرات الشبابية التي يقيمها مدمنو المخدرات، بينما يقدمون لها المزيد من القهوة. كم هو مسكين ذلك الولد الصغير الذي بقي بلا أم!!. إنه يتيم مسكين. لا أحد يبكي تلك المرأة سيئة الحظ بذراعيها المحترقتين، ولا أحد يبكي نار حياتها البائسة. دأب الجميع على أن يدلّل الصغير ذا الأربع قوائم فيما يقفون بالقرب من القفص، ويحرصون على أن يقدموا له قطع البسكويت، وما هو إلا قرد. وأنا في هذا الموسم

الخريفي الشتوي القاسي ما زلت أقف منتصف الطريق. لا أعرف لماذا أنا باقية هناك، مثل حشرة بهوائيات واقفة، مثل فزاعة عصافير واقفة، ومع الحقيبة التي وصلت بها وهي مليئة بالملابس والكتب.

يروق لي المشي حافية على الإسفلت ويروق لي أن تصبح قدماي بلون يميل إلى الرمادي. يفتح زوجي حوض السباحة البلاستيكي ويصرف الماء المتأكسد فيه إلى الحديقة. تغرق الآلاف من النمل، لكن لا أحد يعير بالاً لذلك. أنا أنتظر اتصالاً، الهمهمة التي تأتي من الطريق الخارجي تشبه دوياً في الدماغ، السيارات التي تمر مسرعة كالأسهم هي أفكاري التي تنطلق برأسي. أنتظر اتصالاً ثم يشوشني الصدى الذي يحدثه الطريق الخارجي السريع مع صدى الهاتف، ثمة مواء أسمعه وأنا أجيب «مرحباً»، ثمة صوت لضربة مطرقة يتناهى إليّ وأنا أمسك بالهاتف. كل ذلك تشوه كبير. بوسع سيارة ابني الـ«بروم» الصغيرة التي يلعب بها أن تدهسني. منشار الشاب الصاعد على السلم ببنطلونه النازل إلى أسفل هو صرخة للذة. طوال اليوم وأنا أمسك بهاتفي الخلوي وتلهب يدي حرارته ولم يتصل أبداً. أتحرك جيئة وذهاباً على الطريق السريع. ينفذ الحصى الصغير ليدخل بين أصابع قدمي بينما يشتعل جبين ابني من الحرارة. حتى الدراجة البخارية لم تمر بالجوار. الرغبة بشخص ما هو مثل مرطبات حلوة المذاق تلتصق في رقبتك، وعلى جلدك المشعر وعلى أوداجك. جاء زوجي للبحث عني.

تأخر الوقت ولا يمكن رؤية أي شيء هناك. لا يمكن رؤية النشرات الضوئية التي على شكل فاكهة ولا لوحات «توقف» الحمراء المرورية كذلك. راح زوجي يصفر صفير الانتصار. أشار لي، يداه ومضات بلاتينية اللون، يبدو كمن يساعد طائرة على الهبوط. هيا اركبي السيارة على الأقل!! صرخ بي. أنا ظلٌّ من رأسي حتى أخمص قدمي. حسنٌ، قادمة الآن، ها قد دخلت، هيا لنذهب ونتعشَ، ونشاهد التلفزيون، ولنضطجع كي ننام. يمكن رؤية ألسنة اللهب وهي تشتعل في مدخنة البيت الملتوية. المكان حار لكن عينيَ تشعلان كل شيء.

ذهبت الى الطريق لأبقى لوقت قصير آخر. لقد تسممت بالغاز، وأصابني التلف وضاقت أنفاسي. يشير ابني بيده إلى أحد الديكة وهو يلثغ بـ«كوكوريكوت». يزداد حديثنا أنا وهو سوءاً في كل مرة. أشاهد رجال العنكبوت زومبي وهم يغادرون شركة «فيلا إنديا». إنها أصابعه هو، التي تداعبني، إنه ذنب رغبتي التي أشعر بها، ورغبتي المدمرة تلك.

هل قستِ له درجة حرارته. اليوم؟.. لا يمكنني أن أتذكر. حرارته ترتفع. تكاد تصل إلى الأربعين. وحرارتي مرتفعة أيضاً، لكن مَن يبالي بصحة الأمهات. هم أولاً. عليَّ أن أتصل بسيارة الإسعاف. لكنني لا أتحرك. لا يمكنني أن أخطو أكثر من خطوة واحدة. مازلت واقفة على جانب الطريق، تفصلني بضعة سنتيمترات عن السيارات التي تمضي مسرعة ولا تراني. أنظر إلى الريح التي تجعل الزرع يتهادى ويتموج وينفصل عن الأرض. أنظر إلى الطبيعة، وهي تنظر إليَّ. الرغبة هي صافرة إنذار لا أستطيع إيقافها. ابني يمضغ حلمة الرضاعة ويقطعها «مياااام، مياااام». يريد ابني أن يصبح كبيراً، يلبس الحذاء ويمشي مسرعاً. أفضل شيء يفعله، هو البدء من الصفر. برعمي الصغير يضربني بقطعة من ثمرة الأناناس، بوووووم ضربة بشفتي السفلى. وأنا أقول له: لا يا ماما، يا ماما لا، رفعتُ له إصبعي وأخبرته بحركة أم تدلل ابنها: ذلك لا يجوز، أتسمعني؟ ثم ضحك في وجهي. هل تأتين؟ نعم أنا قادمة، هكذا قال صوتي الذي يخرج من ليل البلدة الأزرق. كنا الثلاثة بعدها داخل سيارة الإسعاف، وبعد انتهاء الليل، عدنا جميعاً الى البيت وذراع كل منا تحيط بالآخر. مضادات حيوية وكمادات بالماء البارد. حفرُ قبرٍ لها أو حتى حفرة، سيكون قليل للغاية بحقها. لا بدّ من أن يُلقى بها في العراء كي تلتهمها الوحوش. أقصد الرغبة!!.

أردت أن ينتهي كل شيء على وجه السرعة أو أن يحدث وأنا في حالة شرعية من الدفاع عن النفس. لا يتعلق الموضوع بأني أفكر على نحو جاد بقتله، لكن، في تلك اللحظة وفي ذلك الضوء كانت الوسوسة تسيطر على رأسي. وفوق هذا، لم يتوقف ذلك الكلب، ولن يتوقف، حيث بدأ بالنباح والنباح، كانت عجلات الجرارات المتوقفة هي التي تثيره وتجعله ينبح، كم إنه غبي. كم أتمنى أن يقطعوا له حَباله الصوتية كلها بشفرة قاطعة، لينتهي الأمر بسرعة كي نتمكن بعدها من البدء بشيء آخر.

الفكرة هي ليست قتله تحت ضوء ذلك القمر، الموضوع كله ليس سوى ثوان. وهذه الثواني هي كيف يتسنى لي أن أخبره بذلك، في تلك الثواني أحسست بالراحة مع الخطر. نوع من الراحة تثيرها رغبة أيروتيكية، تثيرها تلك المسحاة التي كانت مرمية بالقرب مني، وجرافة التراب ذات المشط تلك، وحافة السكين المتصدئ الذي يحمله زوجي متدلياً من بنطلونه «الغاوتشي» ويتأرجح مثل الجرس. أعني أني لستُ قاتلة أبداً. لا أملك ملفاً يضم معلومات عن سيرتي ولا قصة تراجيدية تتيح لي أن ألوذ بالفرار ليقولوا: «بسبب أنها قامت بفعلها وهي تحت تأثير شعور عالٍ بالعنف». لم يغتصبني جدي أو عمي. كانت لي طفولتي التي عشتها، لكني نسيتها. لا أتذكر شيئاً حدث قبل ليلة أمس عندما هربت. يبدو أن ثمة عملاً سينشغل به الخبراء معي. لكني نتاج عائلة طبيعية. عادية وطبيعية للغاية. محامي الادعاء يفرك يديه غير مرتاح. عائلة طبيعية هي أكثر الأشياء شراً. إنها كذبة. أو لا شيء أكثر شراً من أن تكون نتاج عائلة طبيعية.

أولئك الشياطين هم أبناء أمهم، أنا مَن رعاهم، وأنا مَن أطعمهم، وأنا مَن أسمنهم. ما يحدث أنك ستتزوجين به، لتنتهي بأن يصبح لديك ثلاثة أبناء. أول أبنائك سيأتي بالابن الذي يليه، إنهم مثل أعقاب السجائر، إذ بعقب سيجارة مشتعل، يمكنك إشعال السيجارة التي تليها. سوف يشترون هذا البيت أو بيتاً أكبر سنراه على شبكة الإنترنت، بيت يحتوي على مسبح حقيقي بسياج مزود بجهاز إنذار للأمان ينطلق حينما يسقط طفل في الماء. ذلك ما أعتقده.

أعطني ثانية من الوقت. بينما يمشي مختالاً خلفي. دعني أسألك، لو سقطت على ركبتي وأصبت بالجروح، لو كسر عظمي، لو تعلمت الصلاة، هل توجد فرصة هناك أستعيد بها الزمن، أستعيده حتى لو كان زمناً مزيفاً، أم ببساطة أن هذه القصة ستنتهي حالما تنسى الأم تشغيل جهاز الإنذار؟ إذن بعد طريقة التفكير هذه، التي لا أقول إنها طريقة ظلامية، بل بالأحرى هي أكثر واقعية أو أكثر إضاءة، أبلغ أقصى حد من الإضاءة بداخلي لأشعر بالسلاح وهو بيدي. الإضاءة تتطلب أن تتعامل بمزيد من الحذر. عندما يضيء العقل، مهما عمل من سوء، فإنه يضيء بالرغم من ذلك. لا أحاول السخرية منه، إلا أن شكله بدا مثيراً للضحك وهو يقف خلفي، حوضه مدفوع إلى الأمام. فيما رحتُ أحدق في المظلة الخضراء التي يستخدمها جارنا كي يغطي قمامته. كيف تتراكم القمامة في البلدة. ثمة أمكنة أخرى مخصصة لهذا الغرض. ليملؤوها بالمزيد منها. صناديق خشبية وخزانات ذات رفوف، سقوف معبأة بأشياء تافهة، كان عليهم إضرام النار فيها وحرقها. لا أريد أن آخذ على عاتقي قطع عنق الرجل، لكني أعتقد وحسب أن حالة الاستسلام تثير غضبي.

ما زال الكلب ينبح. على من ينبح لا أعلم. جسمي متيبس. متيبس

للغاية. شديد التيبس. نلقي اللوم بذلك على البرد. غادرت المكان من غير أن أشعر إن كنت أدوس على رأسه أم على الروث. من حسن الحظ، كل شيء انتهى بسرعة، بسرعة كبيرة.

استيقظت من النوم وهي تنظر إلى زوجها الذي يقرأ الجريدة ويجلس في الكرسي الطويل (chaise longue) الموشى بالخطوط. كانت تستمع إليه وهو يقلب صفحات الجريدة. شاهدت أي مقال يقرأ وفي أية زاوية من الجريدة يتوقف. سمعته وهو يتنحنح. شاهدته وهو يضع ساقاً على ساق. متى سأبدأ بالشعور بأنه ميت؟ متى سأتمكن من الصلاة على روحه؟ أسئلة يصعب الإجابة عليها عند الرابعة والنصف صباحاً، أمي تناولي شيئاً ما كي نعود لنخلد إلى النوم. ثم تنشق الهواء بصوت مسموع وقد نفد صبره.

بدت على فراش حماتي آثار توحي بأنها كانت تصارع نفسها من أجل أن تنام. هيا، اذهبي لتنامي. كان ذلك أمراً مستحيلاً بالنسبة إليها. أجفانها مثقلة بالنعاس. هل هو رجل يحتضر؟ قالت ذلك وهي تقف على ذروة شهوة غابرة. هل تسأليني أنا؟ قلت لها وأنا غارقة في بيجامتي. اللوحات والصور المطبوعة والصور الشخصية. ملابسه المرزومة بشكل منتظم، مناشفه، عطره، فرشاة أسنانه، مشطه، جواربه، الرغوة التي يستخدمها في الحلاقة، ومسحوق الطلق الذي يعطر به قدميه، كتبه المختومة، كنبته، غليونه وعلبة الكبريت التي دأب على استعمالها، لباسه وقمصانه الداخلية، والكريم الذي كان يستخدمه للحلاقة. ولا شيء من ذلك على وجه الخصوص. طريقة تنفسه، والأثر الذي تركته مؤخرته على المرتبة ورائحة فمه الصباحية، صوت الماعز المقزز الذي يصدره وهو يلوك الطعام، وهو يتمطى ويطقطق عقد أصابعه أو وهو يتحدث إليك، جسمه المستكين في الكرسي أو المتوقف عن الحركة، وهو يسند ظهره على الجدار. وفضلاً عن كل شيء، لديه طريقة لا يمكن الشعور بها، طريقة لا يمكن التكهن بها في النظر إلى الأشياء. كأنه دبور كبير أو دودة صغيرة أو قطعة مجتزأة من أرض مجدبة.

ثمة رغبة غير مكتملة لكنها مع ذلك رغبة شرسة كانت تكفيني لأحرق بلدة بأكملها. ثمة شكل يبدو لرجل ما قادم في الطريق، بدا بعيداً ولا نعلم حتى اللحظة ما هو هذا الشيء. إنه رأس. إنه جمجمة ستصبح حلية يتزينون بها. حماتي تسأل وتسأل، ما الذي يمكنني أن أفعله، بني، هل أنظر إلى السماء؟ تناولي الشاي، أمي. هيا. يهتم ابنها بصحتها. عندما يعاني الآباء يستحيلون إلى أبناء.

ما زلت أجلس وأنا غارقة في الكنبة، بالقرب من موقد النار المطفأ. أنظر إلى الشبشب الذي كنت أرتديه، أريد أن أصبح هايدي. لكني أستطيع فهم حماتي إلى درجة أني أريد أن أركض وأدخل في صدرها، وأضع أصابعي في عينيها. أفهمها إلى درجة أريد الدخول فيها، في روبها الذي ترتديه. إذ بهذه الطريقة يمكننا أن نملك أربع أيدٍ، عسى أن يريحها ذلك. لم أقل شيئاً.

ما زلت باقية في القالب الذي يرونني فيه، أنا الكنة، لكني ذئب بلباس شاة. بقيت أحدق كالحمقاء في الخزانة الخشبية الممتلئة بآلاف من قوارير حلوى المربى المنزلية التي صنعها الرجل الذي ووري جسمه التراب. كل قارورة لصقت عليها علامتها «صيف 94، صيف97، خريف 2002». تعد مسألة فهم الواحد للآخر أمراً في غاية العنف. من المفضل السكوت، هذا ما أفعله، كنت أتصرف حتى أبدو مثل خرساء. يحرك زوجي شاي الأعشاب لأمه بالملعقة، ويرفض أن يضع لها السكر. يربت عليها بهدوء وهو يقول لها ليس هناك ما بوسعنا أن نفعله يا أمي، أبي لم يعد موجوداً، لا توجد كلمات يمكن أن نقولها بعد اليوم، ليس بيدي ما أستطيع فعله كي يعود إلى الحياة. ثم تابع وهو يقول لها: «ليرقد بسلامٍ في قبره» ثم يتأفف ضجراً.

تسكرني الكلمات التي يقولونها عن الأموات. لا يعرف كيف يوقف رصاصة الموت التي ستصل إليها عاجلاً أم آجلاً. يعتقد بأنه يساعدها عندما يفعل أشياءً كهذه. ترتفع مقصلة الموت في الهواء بيد أن حاسة التنفس ليديه تفشل ولا يتوقع أن تُقرع أجراس الموت. يعانق الابن أمه، لكن أمه لم تعد موجودة. لا يمكن وقف هذا البالون الذي يهزه الهواء. ذلك الشيء الخفيف الذي يقطع سماء خالية ليلتهمه بعدها الوميض. كنت أنظر إليها ولا أفكر بشيء، وأرفع كتفي ولا حيلة بيدي، كمن ينظر إلى مريض في فترة نقاهة، كمن ينظر إلى شخص ينطفئ بينما نبقى نحن واقفين، ننظر شزراً إلى الساعة. شعرت بالحزن لأنها لن تعدّ الطعام من

أجلي بعد اليوم، وهي تملأ البيت بالروائح الزكية، وتطعم أفراخ الحمام الخبز المغمس بالسمن. ماذا يعني أن رجلاً يموت؟ ما الذي حدث، وما الذي لم يحدث لحياته؟. إنها السادسة صباحاً، حماتي العزيزة. لترقدي براحة. لا أظن أحداً سيجيبها بعد اليوم. ولا ضرورة لأن يفعل ذلك.

وصلت بالضبط إلى منحدر الغابة. كنت أستمع إلى المذياع، إلى امرأة كانت تتحدث عن «*السيدة دالاوي*». التقطت البرنامج الذي كان قد بدأ، لكني سرعان ما انتبهت إلى أنهم يتحدثون عنها؟ إلى أي مكان ستذهبين؟ ينزل زوجي من السيارة ثم يشد الكابح اليدوي كي لا تسترسل السيارة وتذهب بي إلى البحيرة. اليوم أنت أفضل، قال، كل مرة تقودين السيارة بشكل أفضل. بقي أن تتعلمي إحكام السيطرة على السيارة في المنعطفات والقيادة إلى الخلف. شاهدته وهو يبتعد ويضع المسامير في الرصيف الجديد. بقيت محبوسة في السيارة وزجاج نوافذها ملطخ.

رفعت مستوى صوت المذياع، ورفعت قدمي عن «الدبرياج». «*السيدة دالاوي*» رواية عن الوقت وعن شبكة العلاقات المتعددة للوجود الإنساني. كم مضى من الوقت ولم أسمع بهذه المفردة «شبكة العلاقات المتعددة». اللعنة أحاول أن أدير قرص العجلة البلاستيكية بيدي لكن هذا المقعد لا يتحرك إلى الخلف. زوجي يشاهدني من بعيد وأنا أكيل اللعنات، يقرأ شفاهي ويبتسم وهو يضع سيجارة خلف أذنه، كأنه بائع في دكان. كيف يمكنني مشاهدة الغابة نفسها هذه، هذا النسيم البهي، بيتي نصف المشيد، ذلك الرجل الذي ينصب الدعامات الخشبية. لو أن ناقداً طلب مني الكتابة لكتبت عن ذلك، عن «شبكة العلاقات المتعددة للوجود الإنساني». بعدها أطلقت ضحكة هستيرية كبيرة.

كنت أحاول في اليوم التالي أن أقرأ قليلاً عندما سمعت وقع أقدام صغيرة: تك تك تك،لأشاهد أن جرذاً يدخل على مهل تحت مكتبتي، وجب عليَّ أن أنادي جاري الذي جاء متسلحاً بالعصا، أتوا بعدها بقطة رمادية اللون وجدوها وهي تتمشى كي تدخل مجاري تصريف المياه. أطلقوا القطة في غرفتي، راحت تقفز هنا وهناك وتلطخ كل شيء بالعفن الذي كان يغطيها. تركت فراشي وهو يمتلئ بشعرها، لكنها لم تفعل أي

شيء. ولهذا السبب أجلس الآن لأقرأ وفي كل ركن من أركان البيت فخ لصيد الفئران.

يتحدثون عن سبتيموس، بطل الحروب الجريح الذي دخل أيضاً في حرب مع كآبة المس والجنون، والذي ألقى بنفسه فعلاً من النافذة، فكرت وأنا أقرأ الرواية في ما يمكن أن تحدثه المؤثرات المسكنة في حياتي. الكتابة أم إلقاء نفسي من النافذة. أولئك الذين يكتبون لا يحتاجون إلى سترات جلدية لأن في عالمهم يكمن الصيف. أمسك بالكابح اليدوي. أشعر بالراحة أحياناً أن أعرف وأنا أدخل إلى البيت في وقت متأخر من الليل أنه لن تظهر لي من الحنفيات ثعابين بألسنة طرية. لم يحدث ذلك أبداً، بل يستحيل أن يحدث، على الرغم من أن ظهور نمر في غرفة المعيشة أمر ممكن، نعم. يمكن لشخص ما أن يتحدث عن أحد شخوصي، كما يتحدثون عن «السيدة دالاوي». أطفئ المذياع وأحاول الاستماع إلى صوت العصافير وهي تستخدم لغة غير مفهومة، غير أن ذلك إرثٌ مسمومٌ. كيف يمكن أن يحدث؟ كيف يمكن أن يحدث؟، أتساءل بينما أضرب عجلة القيادة بيدي، اللعنة. بقيت نائمة هناك، في كرسي السيارة نصف المائل إلى الخلف، بينما أرجل صغيرة راحت تنطبع على الزجاج. فتحت إحدى عيني بعد وقت طويل وشاهدت شحروراً أسود بمنقار أصفر يقفز باتجاهي.

أردت الذهاب إلى الحمام منذ أن أكملت طعام الغداء، لكن من المستحيل عمل شيء آخر إلا أن أكون أمّاً. ثم هيا ليبدأ البكاء، يبكي ويبكي ويبكي، سيفقدني عقلي. أنا أم وانتهى الأمر. ألوم نفسي، لكني حتى لا أجرؤ على قول ذلك. على مَن؟. هل لأنه على ركبتي، يضع يده في صحني وعلى ما تبقى من طعام بارد فيه ويلعب بعظمة دجاج؟ لا!!، أترك هذا، سوف تغص. رميتُ له قطعة بسكويت صغيرة. فأعادها لي. فمي مليء باللعاب ولب الخبز. قطعة من الطعام تلتصق بذراعي. لم أدعه يكمل، رحت أدسّ في فمة قطعة بسكويت أخرى، لكنه سرعان

ما غصَّ بها. لا أتحمل مسؤولية ما يمكن أن يفكر به تجاهي. أتيتُ بهِ إلى الحياة وهذا يكفي. أنا أم تعيش يومها بإيقاع آلي رتيب. إنه يتباكى وهذا أسوأ من البكاء. أرفعه وأبتسم في وجهه ابتسامة مزيفة، وأضغط على أسناني.

كانت أمي تشعر بالسعادة قبل أن تلد صغيرها. تنهض أمي كل صباح وتحاول الهروب وهو يزداد بكاءً. أريد الذهاب إلى الحمام، لكن ذلك القواق الذي لا ينتهي، ذلك البكاء المشوب بالشكوى، يجعل الأمر مستحيلاً عليَّ. ماذا يريد مني؟!!. ماذا تريد؟ لا يدعني أتركه. كان يقوّس ظهره لئلا أتركه. يوم أمس وجب عليَّ أن آخذه معي إلى الحمام كي أتبوّل. اليوم أفضل، فعلتها على نفسي. اتصلت بزوجي. كنت أحتاج إلى القوة. وبينما كنت أدير أرقام الهاتف، عندما كنت أحمله على كتفي، راح يفلت نفسه مني. ويلصق شيئاً لزجاً في سُرتي. أرجوك ارفع السماعة، أرجوك هيا ارفع السماعة. اسمع حبيبي أحتاج أن تأتي الآن إلى البيت. لا يمكنني الاستمرار على هذا النحو. لا، لا يمكن أن تأتي بعد قليل. عليك أن تأتي الآن، أنت لا تفهم ما يحدث. أنت لا تريد حتى أن تفهم. لا أحتمل إلى الليل. أغلقت الهاتف لأنه تظاهر بأنه لا يفهم، لكن في الأقل أنه سيشعر بالقلق ويأتي. وبقينا نلف في البيت نشبك سلك الهاتف لعله يتصل. ثم أخذته إلى الباب لعل أحدهم يمر ويمكنني أن أعطيه له ليحمله. لكن لا وجود لجيران كالذين أحتاجهم. يوجد أبناء زنا وحسب. وماذا لو طرقت باب العجوز التي تعيش خلف نوافذها المسورة بسياج ومع سلحفاتها المتوحشة. من المؤكد أنها ستتسلى برفقته، سيصبح الأمر كما لو أن تتفرج على التلفاز أو كالذهاب إلى السينما. لكن لا أحد مرّ من أمام الباب، لا أحد يريده، لا شيء يتحرك. الهواء ساكن ومسكون بالشياطين. ألقيتُ به عند قدمي. انقلب، تمدد، صرخ علي، نزع الحفاظة، فك أربطة الأحذية، أكل السيور الجلدية. أنظرُ إليه كما ينظر السلطعون الى طفلٍ ما.

تمر سيارة سباق تقل عائلة. وجوههم تطل من النوافذ. إنه الليل وما زلت أتكئ على سياج الحظيرة، تذكرت نفسي عندما كنت حاملاً اعتقدت بأن بداخلي مزراب ماء بهيئة حيوان متوحش. تذكرتُ نفسي ساعة المخاض، وأنا أنفث الهواء. أخذ البرد يلسعنا. عليَّ أن أدخل وأشعل الموقد وأرفع طعام الغداء الذي يفيض بالنمل الأحمر وهو يحمل جزيئات الطعام ليحتفظ بها إلى الشتاء القادم. لم يجب والد الصغير بأي ردٍّ. حملته على ظهري ودخلت به وهو متعرق وجائع.

أظفاره مدببة. عليّ أن أعدَّ له طبقاً من المعكرونة أو الحساء. ذهبت وقطعت بعضاً من خضارحديقة جارنا لكني شعرت بعدم الارتياح. أن تكوني أماً هو أمرٌ يثير الحزن. من الصعوبة أن أحتفظ بذلك بداخلي. شعرت بعدها بذلك الألم الذي يعتصر أحشائي. تركته يسقط. وجلست ووضعت ساقاً على ساق. وأسرعت لأقفل الباب على نفسي. كان يبكي كما يبكي الآسيويون في شعائر ترهيب النساء وهم يمزقون ثيابهم. لا أحتمل المزيد، فتحت الباب، فكرتُ كم إنه مثير للغثيان كل هذا الذي يحدث.

أبداً لم تكوني امرأة «كووول» مسترخية، ولم تكوني امرأة متأملة. تكررت الكلمات ذاتها طوال الطريق. أبداً لم تكوني كووول، أبداً لم تكوني مسترخية. أشعر بأن مرضاً أصابني. أضع ولا أضع ساقاً على ساق. أما صدري فليس بوسعي حتى التحدث عمّا يحدث فيه. في الخلف من السيارة يجلس ابني في مقعده الصغير. على جانبي الطريق، هناك الكثير من القرى والقرى الصغيرة. وتكشف التلال عن مشهدٍ يمكن أن يكون جميلاً. كوني طبيعية، اهدئي، قال ذلك ونزل من السيارة. دخل إلى المخبز. نزلت أنا أيضاً، ثم عبرت. كنت أنظر إلى السيارة وأنا أقف في الشارع.

ابني لا يحيد ببصره عن أبيه الذي ذهب ليشتري المعجنات المحلاة التي راح يختارها وهو يقف خلف زجاج المحل. بأي نوع من الشوكولاته صُنعت؟ وهل توجد أخرى مصنوعة بالكريمة المحلاة؟ كم قطعة أشتري حبيبتي؟ عاملة المخبز بعينيها المتدليتين على أنفها كانت تنتظر والملقط في يدها، وأصابعها مغطاة بمسحوق السكر. ألقيتُ نظرة سريعة داخل المحل وبعدها عدت لأذهب ثانيةً إلى الزبالة. لا أعلم ما الذي أقول. كنت أقطع الشارع جيئة وذهاباً. خرج زوجي وهو يحمل علبة كرتونية وضعها على ساقيَّ. انتبهي للعلبة، اشتريت ستُ قطع. ثلاث بثلاث. اثنان من كل نوع. كنت أضع يدي عند فتحة الباب. كنت أرتعش، كنت أشتعل. شاهدت في إحدى الحدائق مجموعة من الحيوانات، أحدهم يقف وآخر خلفه يشم مؤخرته. أخرج ذلك المشهد ما بداخلي من جوعٍ خفيف. ممارسة الحب تقلب معدتي وتصيبني بالغثيان في هذا البرد.

تستدير السيارة في أحد المنعطفات، ويسقط مني صندوق المعجنات. تلطخ بعضٌ من الكريمة المقعد. صرخ بي. فعلت ما أستطيع كي أنقذ

قطع الحلوى من أن تقع، ثم أصلحت وضعها في حجري. نظر زوجي إلى القطع بازدراء، عليها آثار أصابعك، قال. كنت أحاول أن لا ينتبه لها، لكنه كان شديد الانتباه. أبداً لم تكوني مسترخية، قال. لم أشاهدكِ وأنت «كوول» وهادئة مطلقاً. أنتِ تدمرين كل شيء. أطفأ سيجارته في السيارة، وهذا شيء ممنوع في عرف عائلتنا. لم أعلق بأي شيء مهما حدث. أي نوع من العائلات هذه على أية حال. نافذة السيارة مفتوحة.

يضرب الهواء البارد مباشرة صدر الطفل الذي مازال مستمراً في تناول للعلاج المضاد الحيوي. ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل. بدأنا نحن الثلاثة بنوبات من السعال في الوقت الذي وصلنا فيه إلى بيت أحد أصدقائنا. سجادة سميكة بلون البيج. باب صغير ينفتح على أوراق الخريف. دراجات الأولاد الهوائية الصدئة وعجلات سيارة احتياطية وخيمة صغيرة نُصبت في منتصف غرفة المعيشة. كلب أبيض صغير يقبل الصغار من أفواههم. إبريق شاي. علب كرتونية لقطع الحلوى جلبها مدعوون آخرون، مناديل ورقية، ملاعق صغيرة... وكذلك أسرار. جو ماتع. إنه جو الآخرين. كان يدهشني العدد الكبير للأشخاص المتحضرين. شعورهم مسرّحة. تفوح منهم عطور طيبة. مرحباً، كيف الحال؟. مرحباً، مضى زمن طويل ولم نلتقِ بكم. كيف تسير الحال معكم. كل شيء على ما يرام، شكراً. وأنتم كيف تسير الأمور مع حضراتكم؟ تحيات وعناق وأيدٍ تصافح أيادي أخرى. ومرة أخرى عناق وأيدٍ تتصافح. الجميع حول مائدة يتبادلون التهاني وهم يقولون: «عام جديد سعيد»، على الرغم من أن العام الجديد قد بدأ ومضت عليه مدة طويلة. كانت هناك مرآة أمامنا. لا أحد يشعر بالألم، لا أحد مصاب بالجنون ولا أحد يستحضر الأموات. أكاليل من الزهور تركت في مكانها منذ آخر حفل عيد ميلاد أقيم لأحد الأولاد.

تيتي!!، لا تضع ذلك في فمك، أخرج من هناك، كلا!!احذر إنه السلّم. هيا يا أولاد حان وقت تناول وجبة المساء. من يريد قليلاً من الحليب؟ فليأتِ الصغار إلى المائدة. وحضراتكم؟ ما الذي ستعطوه ليأكل؟. هذه

أول مرة ننظر فيها إلى بعضنا أنا وزوجي. ما الذي نعطيه ليأكل؟. أيُّ شيء. أي شيء يتناوله الأطفال الآخرون. لم أجلب له معي وجبة طعامه. لقد نسيت. جلبت له معي علبة الكريمة المنظفة والمرطبة للجلد، وسريره الصغير وزوجين إضافيين من البنطلونات، وقطراته.

تناول الأطفال طعامهم مجتمعين وبدا المكان كأنه حديقة أطفال. يبتسم ابني الصغير، لم أكن أميّز ضحكته. نزلوا إلى حديقة البيت الداخلية. أخذوا يتسلقون، ويتمرغون على الأوراق المتساقطة. أما نحن الكبار فقد أخذنا نغرف الطعام لأنفسنا ونجرب الأطباق الصغيرة المختلفة منه. شعر زوجي بالخجل من أن يفتح علبة الحلوى التي جلبناها معنا أمامهم لذلك تركها جانباً. لم يمسها أحد. سُيّحت القطع الست على بعضها.

بدأ المساء يدخل كأنه حيوان ثقيل. أو كأنه بطريق هائل الحجم يدخل الماء الموجود خلف أشرطة أفق المزارع المتسمرة في الأرض.

سأل أحدهم، ما الذي يوجد في العلبة؟ لم يلحظ أحد آثار أصابعي على الكريمة. ثمة صراخ وصوت علا بين الأطفال. هرع آباؤهم ليروا إن كان ذلك البكاء لأحد أبنائهم كي يخرجوا ويخلصوه. تناول زوجي قطعة من الكعكة الإسفنجية لكنه سرعان ما شعر بوخزة في خاصرته. ألم شديد في أضلاعه. نظر الجميع إليه عندما أحدهم قال، هل نستدعي طبيباً!! خرجوا يبحثون عن أطباء الحمير والحانات. آه، الأطباء. كنت أتفرج على المشهد وأنا أجلس في مكاني. لم يتكلموا معي، ولم يشركوني معهم، لم ينظروا إليَّ على أني بمستوى المهمة. طبيب!!، راحوا يصرخون طبيب. أما البقية فلسنا سوى مجموعة من الفاشلين. أخذوا يتنقلون من بيت إلى بيت، ويصادفون أنواع مختلفة من البشر، لكن، من الصعب العثور على طبيب، عليك أن تدرس لكي تصبح طبيباً. عادوا في النهاية ومعهم طبيب بيطري، كان يولّد إحدى البقرات، كانت يداه وذراعاه ملطخة بسائل من غشاء جنين البقرة. مددوه على السجادة. أيُّ تشويه للمهنة هذا. لبس الطبيب البيطري قفازات اللاتكس المطاطية. تحلّق الأولاد حوله وهم

ينتظرون أن يروا النتيجة. ظنوا أنهم سيشاهدون إحدى حيل عروض تقديم السحر. كنت أعتقد أنا كذلك بأني سأشهد حالة ولادة. لم أشأ متابعة المشهد الى نهايته، ولم أشأ العودة إلى البيت كذلك. نراكم قريباً، اعتنوا بأنفسكم، تحياتنا إلى العائلة. نراكم لاحقاً. إلى اللقاء، إلى لقاء قريب. قال زوجي: حبيبتي، كادَ قلبي أن يتوقف. وهل كان ذلك خطئي؟ سألته. إنه إنذار بالخطر. وماذا تريدينني أن أفعل مع إنذارك هذا؟. أريدك أن تنتبهي عندما ينطلق الإنذار. حسنٌ، حسنٌ. أريد أن أخلع حذائي وألقيه. لم يجرب أيٌّ منهم الحلوى التي جلبناها، اشتريتها فحسب لكي يلقوا بها. أريد أن أعدو وسط الشارع، وأنا عرجاء. أجل، تناول أحدهم بعضاً منها، لكن لماذا تناقش ذلك الآن؟. لأنك لم تحترميني، وما حدث مع علبة الحلويات أبسطُ مثالٍ على ذلك. ثم بدأ يقول أشياء من قبيل أن العلبة تمثل الزوج والزوجة، وتمثل عائلتنا. تركتها تسقط ثم حاولت إصلاح الأمر لكن يبدو أن الوقت قد فات. لم أكن أسمع جيداً ما كان يقول. ولا أفهم ما كان يتفوه به من استعارات، لا بدّ أنني دخت. كنت شاردة البال، لكني كما لو أنني كنت أشعر بالذعر من كابوس ما. أريد أن أقود مسرعة وسط الشارع وأنحدر بلا توقف عندما أصل إلى الساقية، أريد أن أركض فوق الأزهار في سباق خطر مع نفسي. ما الذي يحدث لكِ؟ قال. كنت أبدو كما لو أني ابنة بلا والدين. هل بوسعك أن تهتم بتربيته لوحدك؟ سألت. أرمي بنفسي من السيارة الآن. كان الطفل يجلس في الخلف في مقعده مبتسماً وأسنانه الثلاثة بائنة. سوف أرمي بنفسي ولن يصيب قطع المعجنات شيء في المرة القادمة. الحقول تندفع نحوي وتعج بإطلاقات النار التي تتطاير مسرعة وتضل طريقها، وبالطائرات العسكرية التي اعتادت التحليق دوماً صعوداً ونزولاً. سوف أقفز، صرختُ عليه، سوف أقفز، فتحت الباب ومددت ساقي.

وصلنا إلى البيت. ماذا نتعشى؟ سألني. ارتديت المئزر وبدأت أقطع البصل، وأقطع البصل، ثم أقطع البصل إلى شرائح دقيقة للغاية حتى

قطعت أصبعي. أخذت أضحك. أكثر الأشياء جدية هي رغبتي الشديدة بالضحك. ألقيت بنفسي على الأرض المليئة بذرات الغبار الصغيرة. قصة قطع الحلوى التي اشتراها جعلتني أطلق قهقهات طويلة. ضعي يدك على فمك حين تسعلين. ضعي يدك على فمك حين تعطسين. ضعي يدك على فمك حين تدخنين. أسمع نفسي وأنا أقول كل ذلك. أمضيتُ حياتي كلها وأنا أضع يدي على فمي. أنا متسخة للغاية، أنا بليدة للغاية، أنا أكثر خشونة إذ إني أخيف الآخرين. والبيت يختنق ببخار البصل.

أستعمل يد زوجي النائمة كي ألمس نفسي. إنه لا ينظرُ إليّ، إنه نائم مستغرق في حلمه. إنه يستعمل يدي الميتة كي يلمس نفسه. لا أنظر إليه. أنا أنام. نحن على مرتبتين منفصلتين. ثمة خطأ هناك. لم نخلق كي نكون شخصاً واحداً. لا أحد يحب أن يكون توأماً سيامياً مع أحد. وأن تكون أعضاء جسمه ملتصقة بجسم شخص آخر. كان يبتسم بينما هو نائم. أنا لا أجعله مبتسماً. لقد أسأت معاملته. كنت أضربه بقبضة يدي المغلقة على كتفه، وعلى وجهه. لقد تشبع بي وبالعكس. مللنا بعضنا لكننا مستمران معاً. أسبّه وألعنه بالكلمات الغليظة النابية لكني سرعان ما أنهض من الفراش لأقول: صباح الخير ماذا تريد أن تتناول في الإفطار؟ وأصابعي تمتد برفق الى وجهه. تمنيتُ لو أحطم أسنانه.

طفلي الراقص كان يغني وهو بين والديه. أيهما تحب أكثر؟ يسأله. كان على وشك أن ينفجر في أية لحظة. هل سيكون صعباً عليه لو سألني: كيف أمضيتِ الوقت يوم أمس؟ أجل، يبدو أن ذلك سيكون صعباً عليه. كيف أمضيتِ الوقت يوم أمس؟ سألت نفسي. ثم أجبت نفسي: على نحو جيد، ورحت أقصّ على نفسي ما فعلت يوم أمس، كنت أتحدث مع نفسي أنا. سوف أرحل وسيأكل هو قطعة الكرواسان التي وضعتها لي كي أتناولها، وسوف يكمل قهوتي، ومن الواضح أنه سيتركني لأذهب، إلا إنه سرعان ما شعر بالندم ليقول أنتِ حية، كان يقودني إلى المراعي حيث الزرع أطول منا. لم يثنه ذلك عن التوقف. جعلني أمشي كالعمياء، كانت الشجيرات تضربني على جبيني كأنها أشواك، أو كأنها عظام هيكل عظمي. قرر بعدها أن يستغل الوضع فأحاطني بذراعيه وراح يعصرني بقوة، لكنه لم يستمر على أية حال، ودفع بي.

بدأت أتكلم، لا أعلم ماذا أقول؟ لكني أتكلم. قال لي عندما تتحدثين تصبحين مثل صفارة إنذار تنطلق من سيارة، ينطلق صوتها وينطلق، إنه أمر لا يمكن تحمله. عندها تكلمت وأنا أصرخ من دون أن أنتبه إلى أن مستوى الصوت لديّ كان مرتفعاً.

هل بوسعك أن تتكلمي لكن من غير أن تصرخي؟ هل يمكنك أن تخففي من انقيادك لشبقكِ؟، لم يستنتج بأني لا أستطيع. أحكمي السيطرة على نفسك، قال. لا أفهم شيئاً عندما تتكلمين بسرعة على هذا النحو. لماذا لا تعطين دروساً في التلفظ؟، أو لماذا لا تتبادلين الأحاديث بلغات أخرى مع أحد القرويين؟ ثم توقفنا في أحد الأمكنة. والآن ماذا؟. لكني عندما أهم بقولِ شيء ما، ينبس ببضع كلماتٍ ثم يبتعد لأمتار عني وبعدها لا أراه مجدداً. ضغطت بيدي على عيني وحاولت اقتلاعها. شعرتُ بالألم. وما الذي يجديه البكاء؟ أنا أيل خائف، غضٌ وغير سعيد. بدأت أشعر بنسيم بارد. لم يعد إليّ، لكنه لم يذهب كذلك. ما أنا سوى حقلٍ آخر.

لم يحدث شيء حتى تناهى إلى أسماعنا فجأة صوت مخنوق. ركضت مسرعة بشكل دائري لأتوقف في النهاية على الإسفلت ذي الخطوط. وجدته هناك واقفاً أيضاً يراقب المشهد. فصلوا الأبقار عن صغارها، في حين كانت جميعها ترعى بهدوء قبل لحظات في الأرض وتملأ فكيها بالعشب. كم إنهن مثيرات للفضيحة تلك البقرات الأمهات، يرجعن وقد فقدن أصواتهن، وقاومن، لكنهم في الحقيقة أخذوا صغارهن بعيداً عنهن بالطريقة نفسها. أراك لاحقاً أيتها العجول الصغيرة، قلت لها ذلك وأنا أرفع يدي بتحية الوداع. أتمنى لكم رحلة سعيدة. ما تزال الأبقار واقفة هناك، على جانب الطريق.

تصل النسور تماماً في موعد تناولها طعام الغذاء مستعدة له بأدواتها التي تقطع بها الطعام وبالريش الذي يشبه منديلاً يطوق رقبتها. عدنا سوية، يعانق أحدنا الآخر، نحب بعضاً أكثر. أخذنا ندندن أغنية قصيرة وخفيفة: لماذا أخبرني لماذا؟، أخبرني لماذا يمكن أن يحدث ذلك؟ على

الرغم من أن البقرة مربوطة لكن صغيرها لا يرحل. المصيبة التي يتسببها الآخرون هي أشبه بضربة حصان قاسية.

الأزهار البرية تدفع الأرض نحو جانب الطريق، إنها تخترق الأرض، إنها تنفيها. كما يحدث معنا. اتفقنا أن نلتقي في نهاية المكان الذي تصطف فيه السيارات. نظرت إلى إحدى أشجار الجوز وفكرتُ أني أفضلها على الرجال. شاهدت صقراً يحلق فوق المرج الأخضر الذي يمتد مثل بحر وأظن أنه سعيد الحظ. شاهدته خلال ضباب تشرين، عند نهاية البيوت. كان يمشي خلف شاب يدفع بعربة وهو يصيح يييييي يييييي، ثمة صرير أحسست به في أسناني. يبدو أنه يبيع السمك والفاكهة.

اتفقنا أننا سنتحدث عن كيف نستمر، وكيف لا نتوقف عندما نكون بمواجهة عقبة ما. إذ لا داعي لذلك على الإطلاق. لم أسمع صوته مرة. من الممكن أن يكون أخرسَ، أو أن حباله الصوتية ممزقة. أدركنا الصمت المزيف الذي يطبق على الطريق. تبادلنا ما يكفي من القبل ونحن على مطبات تخفيف السرعة، تبادلنا القبل على جانب الطريق ونحن غارقَين بالغاز السام الذي ينبعث من محطة توليد الطاقة النووية. ثم بلغنا ذروتنا، بلغنا ذلك الهوس الأيروتيكي، حيث الكلمة نسيج يمنح كلمة، ولون من النحاس، وأدغال على عيوننا وفي عيوننا وخلف أحداقنا. وهكذا مشينا طويلاً برفقة صغار الأبقار ورؤوسها المتدلية إلى الأسفل تقطر دماً، تتأرجح جيئة وذهاباً، لعابها يسيل، ولعابنا كذلك، تصدر زعيقاً كالزعيق الذي نصدره نحن. ثم كالعميان وقعنا في الحفرة. تمرغنا في التراب مثل شخصين معوقين، سلم علينا الصغار من السطح، مدوا أيديهم إلينا. وعندما دخل الليل ودعناهم مثل كلب متشنج.

شيءٌ يشبة حالة من الاختناق يتسلق إلى بلعومي، كأنه قراد يتسلق رقبتي. أو شيء ما ينفتل، شيء يطبق على أنفاسي بترباس، كأنها كُلابة تعترض بلعومي. وعند رجوعنا إلى البيت اقتفينا خطوط الطريق البيض، كنا نمشي مثل بهلوان يمشي على الحبل، كنت أضع قدماً أمام القدم الأخرى، ما زالت

عظامي كعظام الرقيق، وذراعاي مفتوحتين. عندما أشرقت الشمس دفعت طفلي الذي كان يترنم مغنياً: «لا لا لا». ماذا يقول؟ كيف يصبح لديه الحافز لقول شيءٍ ما؟ ذئبي الصغير «بخطمه» البارد يعوي على أحد الكواكب.

بعد أن دخلت، وجدت الدخان منتشراً في البيت. ثمة بطاقة تركت عليها ملاحظة وقبلات ولصقت بشريط لاصق كانت مع طعام العشاء. خلعت ملابس ذئبي الصغير عنه وكشفت عن جلده. العلاج الهوميوباثي المهدئ الذي تناولته تحت اللحاف لم يفعل أي تأثير إذ بعد ساعات استيقظت وقد استحال جلدي الى بنفسجي اللون. كنت استغرق وقتاً أطول من الوقت الذي اعتدت عليه يومياً في عمل أشيائي. لبست أحد جوربَيّ، وسقط الآخر. شبكتُ أحد الأزرار فيما قفز الزر الآخر. مشطت شعري، فحصت أسناني وأظفاري.

كل شيء لم يكن في مكانه. جسمي لم يكن يعمل، لايسمح بوضع الملابس عليه ولا أن يكون مرتباً. ضربت الباب أربعة أيدٍ، ما الذي يحدث؟، ما الذي يحدث؟. ما الذي يحدث؟، ما الأمر؟ قلت. خلعت ثوب النوم. جلدي مصاب بالتسمم. استعدت حاسة الشم. بدأت عيني تطرف. وبدأت أستعيد تلفظ الكلمات والبلع. نظرت في المرآة، لا أبدو أني أشبه نفسي في يوم أمس. لستُ أماً. خارج البيت كانوا يبكون وكانوا غاضبين. يبدو لهم أنه أمرٌ ظريف أن أصبح مجنونة.

تمددوا على الأرض وأدخلوا رسائل متسخة من تحت الباب «مامي نحن نحبك». كم هما مثيران للسخرية ذالكما المعتوهان وهما يصبغان شفاههما باللون الوردي. حاولت أن أضحك، أن أحتفل بالنكات التي يقولانها، أما الآن فقد صار الولد الصغير يتسلق على رأس أخيه الكبير، إنهما وحشان، أريد أن أحتفل معهما لكن ذلك مستحيل. اخرجي على أية حال، نفد صبرهما. هيا يا أمي. اخرجي، قال زوجي بصوت مرتفع حاد، نشعر بالجوع. لا يستطيعون إقناعي بالخروج. ارتديت ملابسي بأفضل ما أمكنني، كنت أقف بقدمي المعوجتين، وقد وضعت يدي على مزلاج الباب.

صمت في الجانب الآخر. هل من الممكن أن يكونوا قد ذهبوا؟ هل ينتظرون أن أفتح كي يضربوني؟ خفضت رأسي ونظرت من ثقب المفتاح. كنت أرى ظلالاً، أو هل هي أقدامهم؟ ربما اختبؤوا أو استلقوا على الأرض أو أنهم فروا. ركلت الباب برجلي. ها أنا الآن في الجانب الآخر. مرحباً؟ هل من أحدٍ هناك؟ صغيري، هذه أنا، أمك. هل أنت هنا؟ ثم خرجت إلى الشرفة. كنت أدوس على فضلات الليلة السابقة، إذ كان حبيبي يشعر بالألم، فقد حرق أنامله بأعقاب سجائره. لكن الرغبة شيء مقدس. وهنا يكمن المأزق. أحدث نفسي وأصابعي رمادية ومليئة بالجروح. إنه لأمر فادح الهرب مع رجل آخر، قالت إحدى جاراتنا، وافقتها على ذلك حماتي. أمر فادح، كرر ذلك بطريقة كورالية رجلان ثملان وألقيا جانباً بقنينتيهما الفارغتين من الخمر. ارقص أنت أيها اللعين. في فرنسا، في فترة العصور الوسطى، كانت الزوجات الخائنات مجبرات على التعري ومطاردة دجاجة واللحاق بها في جميع أرجاء البلدة. يتناهى إلى مسامعي ما يقال من بعيد ولا أعلم لماذا، بدا لي أن الرسالة كانت موجهة إلى مستلم معين. يطل من بعيد بامبي الغزال الصغير، ربما أعلم ما الذي يحاول أنّ يقوله لي. ثمة شكلان يمتدان في الفضاء المفتوح والمتسع للغاية. الزفرات الخفيفة التي تخرج من فم ذئب. إنهم رجالي يقفزون ويحلقون، ويركب أحدهم فوق الآخر. كان يصل إليَّ صدى سعادتهم الكبيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلما يفعلها زوجي معي كنت أطرف بعيني، كما يحدث عندما يطيحون بشجرة. كأنها ضربات فأس. كنت آكل الطعام بيدي والسمن يترشح منها. كنت أتحدث بنبرة قوية ويسيل لعابي، إلا أنهم يفعلونها معي على أية حال. ما زلت أثير شهوتهم. على الجدار أو كما يروق لك أنتِ، قال ذلك الشَّبِق. مربوطة اليدين، كما طلبتِ أنتِ. لم أميّز من هو. بدا وكأنه عرف عني بعض المعلومات. كان يفعلها وتشتعل عيني عدة مرات. طارد الأرواح الشريرة ذاك. كنت كالعمياء. كأني ضُربت بحجرٍ على جبيني، فعلها وفعلها معي، إنه انهيار.

أشياء تسقط وأخرى تُضرب، فناجين الجدة البورسيلانية الصغيرة. اللوحات التي جلبوها من إيطاليا. بيتي هو محل كبير للزجاجيات. أشعر بألمٍ في عظم الفخذ. لم أتفوه بأي شيء. مرة واحدة وحسب انجرفت مع تياره. زوجي الحبيب المتخصص بتكرار الكلام أثار نشاطي مجدداً. استيقظ الطائر الكاسر. تركت نفسي لأغرق في سوائله. إلى الحد الذي وصفني فيه بالعاهر. قال ذلك وفمه يمتلئ بماءٍ يفور غضباً. ماءٌ معدٍ. هي ليست كلماته. سبُحانه الرب. لقد تعلّم، هل من الممكن أنه قد شاهد الرجل الآخر؟. لكن ما عاد ينفعني بعد الآن. أحاول الانتماء إليه. أعطيه جلد رأسي. هيا خذه. أعطيه دماغي. أعطيه جلدي المشدود. هيا شدّه إليك. أعطيه رموش عينيَّ، إذ لايهمني أن أفقدها. ولتبقَ عيني تنفتح وتنغلق على نحو مستمر. إنني أعرض نفسي، هيا تمسك بي، خذني، تذوق طعمي. أريد أن أكون امرأته، غير أني أنظر إليه بالدهشة التي تنظر بها امرأة غريبة. امرأة تنام القيلولة ويهاجمها الظل. امرأة تسير بينما يلمسها كثيرون بمجرد أن تمرّ بهم.

وقعت على أحد جانبي الطريق. شعرت باضطراب في معدتي فأعطوني قدحاً صغيراً من الماء. اجلسي سيدتي، قال الصغار. أعطوني قبضة صغيرة من الملح، كأنهم يطعمون عصفوراً صغيراً. مضغته

«بمنقاري». انتهى، أصبحت بخير. يأتي الآن دور العناق والقبلة المبللة. يأتي الآن دور ملاحقة الحب. أريد أن أذيب نفسي. لكن الأمر يشبه إطلاقة نار على القدمين، يشبه دفن شيء قريباً من سطح الأرض كي تظهر فيما بعد براعمه. نحن زوجان مُسنان تحت نوبة من الحر.

لكنه ليس أحمقَ كذلك. أبدو كأني شخص ما ليس إلا، قال. وبعد فترة، وفي صباح أحد الأيام، عند السابعة وأربعين دقيقة، وبينما كان الهواء الشديد يعصف برؤوسنا، أخذ يقول، تعالي كي تجلسي هنا، كل ما تحتاجينه الآن هو أن تأتي ها هنا وتجلسي كي تسمعي وتعرفي أن الأمر قد انتهى. إلى هنا وانتهى كل شيء. شعرت بأن ساقيَ قد ارتختا. مَن سيهتم بما سيحدث في القادم من الأيام. أمضينا ساعات ونحن الاثنين جالسين إلى المائدة مكتوفي الأيدي، سواء بكينا أم حزموا حقائبنا أم قسموا الأشياء التي تعود لكل واحدٍ منا، من سيهتم لما سيحدث مستقبلاً؟ من سيهتم إن كانت حيازة الطفل مشتركة، أم خطف أحد الوالدين الطفل، أم أصدر حكماً أو قضية إعالة. تعالي واجلسي هنا.

لم تبلغ الثامنة صباحاً بعد، كنت أشعر بمرارة في فمي بسبب ليلة ثقيلة وقاسية ودموية. تعالي واجلسي، على الرغم من أن المرء يجد العزاء لنفسه وهو يفكر بأن شيئاً ما يمكنه أن يتحسن بذريعة أن الجروح ستلتئم، وأن الزمن كفيل بأن يفعل شيئاً من أجلنا. شعرت بألم يخز فرجي، وجب عليَّ أن أحرك نفسي قليلاً لأحتك بسطح الكرسي. لو كان بوسعي لمشيتُ بعكاز وارتديت ملابس امرأة مسنة وصبغت شعري باللون الأبيض وتناولت علاج الأمراض العصبية حتى يتمكن عقلي من أن يصنع حيزاً لهما. أريد أن أصبح امرأة عجوزاً. مثيرة للإزعاج بكل ما تحتويه الكلمة من معنى، نتنة لا تُطاق، لو أفعل ذلك لشممتُ نفسي وتناولت الدواء وسيكون لزاماً عليهم أن يحمموني لوقت طويل. وهكذا، ما زلت مع فرجي الذي يخفق، سمعته، ورأيته وهو يثير فماً بعيداً وأصبح يحركه، ليقول كلمات لم أفهمها.

الأوراق تتقطع في الهواء، والديكور يهتز كما لو أن شخصاً ما يقودنا. كنت ما أزال أسمع كلمة علاج. يبدو أنني أنا التي كنت مقصودة بذلك. امرأة وجب أن تهدأ. امرأة أصيبت باضطراب في رأسها. الذهاب الى مكان يمتلئ بملايات وجدران بيض، يضعون تحت لساني عدداً من الحبوب، وأقراصاً صغيرة وأقراصاً أخرى.

تعرفت على جارتي في الغرفة، تناولت العصير مع سيئي الحظ الآخرين، عملت في ورش الأشغال اليدوية، واستغرقت في قراءة كتب بأغلفة قوية مرسومة. إلى أن قام الأطباء المقيمون في أحد الأيام بنفخ البالونات وتلوين البطاقات التوديعية بألوان الباستيل، كوني كنت أقضي فترة مرضية وأعود بعدها إلى المجتمع. كتمتُ هواعاً كان يلازمني أعلى ألف مرة من صوت التشنج والتقلصات وأسوأ ألف مرة من الشعور بألم الحزن والزائدة الدودية والعين الشريرة. ومثل ضفدع الطين إذ بقفزة واحدة انطلقت، كما ينطلق البول المسموم، لألقي بجميع أعوامنا العشر كزوج وزوجة على المائدة والكرسي والكنبة. ومقابل حجم الدمار هذا، لم يعرف إن كان سيزيحني من أمامه أم سيعانقني أم سيتصل بسيارة إسعاف وأن يدخلوني المشفى في النهاية. كان الطفل ينظر إلينا من بين أرجل المائدة وكان يفهم كل شيء كما لو كان شخصاً بالغاً. أصبح كل شيء داخل البيت مثل شظايا متناثرة.

ينظر إليَّ طفلي الصغير ويضع مطوى كبيراً محدباً في فمه. نهضت وأنا أرتجف، لقد أضعت بيتي، خرجت إلى الحقول، سوف أكون أقل ضياعاً لو أنهم أعلنوا في المذياع بأن الحرب قد اندلعت. سخرت مني الطبيعة، تلك المحنكة الكبيرة لم تعد شفيعتي بعد اليوم. الديدان صارت تصعد على جسمي. بقيت أنظر إلى الأعلى. أتمرغ بين الأعشاب وعندما انتهيت ذهبت لأدخل إلى البيت ثانية. كان ولداي يشاهدان عرضاً في التلفاز ويتناولان الهمبرغر. رائحة الطعام المقلي كانت تنتشر في الهواء. لنتزوج، قلت. وبعد لحظة ومن دون أن يبعد نظره عن التلفاز، قال رَجُلي: أوافق.

سنملأ الكوؤس بالشمبانيا هذا اليوم. لأول مرة أضع قدمي في حذاء بكعبٍ عالٍ. لم أكن أعرف أني أمتلكُ خصراً نحيفاً من قبل. شعري يلمع. ثمة سنجابان يتحركان خارج البيت. سكر جميعنا بالخمر. حتى الأحجار. كانت هناك مائدة طويلة بملاية بيضاء تبرز عليها بقع النبيذ. أحدهم قادني إلى وسط الحلبة وأخذ يلفني بيده، كان يعلمني: واحد، اثنان، ثلاثة وجعلني أضحك. يبدو لي أن الضحك أمر معقول قليلاً. كنت أتلمس بأصابعي شكل ابتسامتي.

رقص المدعوون بشكل جنوني وحركت النساء رقابهن التي تشبه رقاب الإوز حركة دائرية تصل إلى ستين درجة. كان بعضهم يقع في المنحدر القريب المؤدي إلى الغابة ولم نعد نراهم مجدداً. وآخرون قد اختفوا. أما جيراننا فقد استسلموا إلى النوم أو إنهم ميتون في أفرشتهم الحقيرة. الهواء كثيف وفي لحظات بدا لامعاً. زوجي يتحرك جيئة وذهاباً، يقبلني لكن ليس بلسانه. يداعب كتفي بيده، حتى الحيوانات كانت تنظر إليه باحترام. وقبل البدء برقصة الموت الشهيرة، وأسفل مصلى كنسي صغير ارتُجل على الفور، شرع أحد رعاة الكنيسة، الذي أبدو أكثر ديانة منه، بمخاطبتنا على نحو احتفالي قائلاً: «نحن مجتمعون هنا، بحضور الرب وبحضور هؤلاء الشهود لنحتفل رسمياً أمام الرب القدير وباسم ديننا المقدس، بعقد الزواج بين هذا الرجل وتلك المرأة». هل تقبل حضرتك بهذه المرأة وتأخذ بيدها لتصبح زوجة شرعية لك؟ وهل تتعهد حضرتك رسمياً، أمام الرب وأمام هؤلاء الشهود، بأن تحبها وتشرّفها وتكون لها السلوى، وأن تكون لها وحدها حسب، وتفي بواجباتك كزوج لها وكزوجة لك، ما دام يمنحكَ الرب الحياة؟. نعم، سأفعل. لكني لم أسمعُ شيئاً. ثمة لعثمة. وطنين. ينظر إليَّ الجميع، أنا نقطة الجذب. «هل تقبلين بهذ الرجل الذي يمسك بيدك زوجاً شرعياً لك، وهل تتعهدين حضرتك رسمياً أمام الرب وأمام هؤلاء الشهود بأنك ستحبينه وتشرفينه وتكونين له السلوى وأن تكرّسي نفسك له هو وحسب، وتوفين بجميع

الواجبات والالتزامات التي تملكها الزوجة تجاه زوجها، ما دام يمنحكِ الرب الحياة؟ ما دام الرب يمنحني الحياة ساقاي تجري على الطريق وصوب طريق آخر موازٍ له.

مازلت أمتلك في ذهني القوة والإرادة لغرس سكين في لحم بقرةٍ ما. وقبل أن أقول «نعم، سأفعل» وجدت نفسي مغلفة بالأعشاب. «ليكن ذلك طابع إيمانكما وحبكما وسعادتكما المشتركة، ذكرى لهذه الخدمة المقدسة ولوثاق الزواج المقدس الكبير الذي ارتبطتما به في زواج مقدس يستمر حتى يفرقكما الموت». لكن كيف سيفرقنا؟ ومَن سيرى جثة الآخر؟ مَن سيقوم بدفن مَن؟ «ولأن هذا الرجل وهذه المرأة، تعهدا رسمياً، أمام الرب وأمام هؤلاء الشهود، كما تعهد أحدهما إلى الآخر، وأظهرا هذا العهد وهما يمسكان بأيدٍ بعضهما البعض، فإني أعلنهما زوجة وزوجاً. وما جمعه الرب لا يفرقه أي إنسان» وبدؤوا بالهتاف كأنهم أبناء آوى أو كأنهم ضباع.

ثم بحثتُ وأنا يائسةٌ عن الأيْل، أيْلي. بحثتُ عن ابني الصغير، إلا أنه كان مختبئاً. لم يكن هناك أي أحد، ولم يكن هناك شيءٌ يمكنه أن يوقفني. ثم رفعونا وهم يحملوننا على الكراسي ويدورون بنا وهم يهتفون «هوررررا» و«يحيا المتزوجون الجدد» و«هللويا» ثم راحوا ينثرون حبات الأرز غير الناضجة والتي راحت تسقط في مسام رأسي. ثم انهالت عليَّ القبلات من الأفواه المتخثرة وفوج من كلاب الصيد الطليقة بذيولها التي تشبه أذناب الزواحف تطوف في الجوار كدوامة وتجر الملاية لتتحطم الكؤوس والقناني والأزهار. في ذهني كلاب تركض أيضاً، أم إنها أمهار صغيرة؟ حقلٌ مفتوح. شاهدتهم وهم يهمسون بشيء ما، كانوا ينظرون إلى وجهي بدهشة، كنت أنا الإمبراطورة، المرأة الملتحية، مدام زنغاري. لمست فمي وانتبهت إلى أنه بدلاً من الابتسامة، كان يسقط من شدقي شيءٌ ما لونه داكن للغاية، فاتر ولزج.

كنت امرأة بفستانٍ أبيضٍ فحسب، نُقشت على خصره أحرف صغيرة، موجود في تلك الغرفة ذات المروحة التي تتوسط سقفها المتشرب تماماً بالماء. أخذت يدي تجول في المنطقة التي تتوسط ساقيَّ. غير أن ذلك لم يكن ما أحتاج إليه. تحسستُ ذلك الجزء قليلاً ويدي تذهب إلى هناك، لكن لا شيء حدث. ثم بدأت أتلمس جسدي وأضرب يدي لكي تصبح يدُ ذلك الآخر الذي دأب يلمسني، ثم فتحت أربطة الجوارب بأسناني. وأزلت النقوش التي كانت تزين أظفاري. ووضعت يدي على قلبي. بللتُ قفاي. نثرتُ بضع قطرات من الماء، تعريتُ عدة مرات. غيرتُ سروالي. حاولت أن أشُمَّ جسدي. لكني لم أتمكن من الوصول على الرغم من أنني مددت رقبتي حتى أوشكت أن تنكسر. أردت أن أنام على وجهي. أو ووجهي إلى أحد الجوانب أو وجهي إلى الأعلى. وبضربة واحدة حركت المقص. وقصصت غرتي وتركت شعري الذي قصصته على المخدة.

نحن اثنان الآن. المروحة السقفية تزداد بطأً في دورانها. إنها فوقي تماماً. الهاتف أخرس. المرتبة كانت بركة ماء. وستائرُ القُنّب تصدر حفيفاً بطيئاً كذلك. كان قد وعدني بأنه سيصل مبكراً لنعيش ليلتنا الساخنة. ترك الطفل مع الأرملة كي يأتي مباشرة. ليس الذنب ذنبي، فقد تركوني هنا وجروحي مفتوحة. لم أعرف منذ متى وأنا أنتظره، لكن بسبب فتح وغلق ساقيَّ لعدة مرات أصبتُ بالتشنج. ثم نهضتُ بقفزة واحدة، شعرت بالألم لأنني لم أرتدِ الصديرية. مشيتُ على الفراش وجلست على قوائمي الأربع. كنت أضحك وأنظر إلى نفسي في المرآة الباهتة وتلفني قماشة التول. كنت إحدى نجوم هوليوود. ساحرة وتراجيدية. ثم دخلت في حوض الاستحمام ورحت أبلل نفسي بالماء، لكني مازلت أشعر بنقص، النقص الذي تشعر به المشتعلة بالنيران.

لم يصل، وأخذت أدور كما يدور الخروف. ربطتُ نفسي ثم حللتُ وثاقي. إن لم يأتِ سوف أبدأ لوحدي بتناول المقبلات وما يسبق الشراب. عملية التسخين المسبق. أتنفس رائحة اللحم النيء التي تنبعث في هذا الفندق. الفستان المبلل يثقلني، كنت أصارعُ نفسي كي أفك أربطة جواربي المشبكة، يخنقني نسيج التنورة التحتانية. أمزج إصبعي باللعاب، لكني أعلم بأن ذلك قليل، لا يملك القوة الوحشية التي أحتاجها. كنت غير مكترثة، شديدة التعري داخل جسدي. أحتاج إلى كوز ذرة أناناس، أحتاج إلى من يهاجمني. اتصلت بالحاجب، أيقظته من النوم. كان يتحدث كما لو تعرضت عيناه للضرب. طلبت منه أن يجلب لي شراب المارتيني وأوضحت له أن يكون بلا زيتون مع قطعتي ثلج وشريحة ليمون. وضع لي موسيقى مثيرة للحب.

نوع من الشغف كان يخالج نبرات صوته، عروس لا أحد يأتي لزيارتها. ماذا لو جاؤوا فقط كي يروها الآن؟ عرض عليّ أن يصعد إلى غرفتي ويأتيني بعصير بارد، كان يحاول مساعدتي على النهوض. قطعت المكالمة. طاقتي الكهربائية العالية في التعري قد بدأت، فقد وقفت فوق حوض المرحاض، رحت أتمايلُ، وأتبختر، وأرقص وأنا أهزّ مؤخرتي. أمشي وأنا ألبس الكعب العالي وأدور في جميع أرجاء الغرفة. جمهوري الثائر هو أنا التي تنعكس صورتي في زجاج خزانة عدة الإسعافات الأولية الصغيرة. في النهاية ألقيت بالسلسلة. العريس لم يصل بعد. لعل كل الأسباب التي تقف وراء تأخيره هو الطفل.

غير مكترثة لشيء أجلس في المقعد الخلفي من السيارة مرتدية شورتاً أصفر، وأمسك بحقيبة سفر صغيرة بيدي، ووجهي كوجه مصابة بمس من الجنون، كنت ذاهبة كي أتدرب. كنت أرفع وأنزل حاجبي. أتصرف على نحو طبيعي، وفجأة ومن دون سبب، أصبحت في حالة سكون وأنا أثبت نظري. أتعلم النظر كذلك الى العينين بقصدٍ مطلق، لكن يُلاحظ أيضاً أنني أعيش في واقع آخر. يجب أن أعمل بحثاً عن معلومات تخص زيلدا فيتزجيرالد في الطريق المؤدي إلى سويسرا، وليس بحثاً عن الشوكولاته أو عن الساعات اليدوية. أجلس وأنا أرفع ركبتي لتكون أسفل ذقني، وألتهم الطريق، الطريق المتعرج. أعض نافذة السيارة. قام زوجي بالإشارة التي تعني أن أتوقف عن ذلك وهو ينظر إليَّ في المرآة الجانبية. قام بالإشارة التي ناقشناها يوم أمس واتفقنا على أنها كانت الأفضل. نحن الثلاثة.

صار علاجي قريباً، أراه قادماً. مرآة كثيفة تفصلنا عن بعضنا، أنا وهي، أنا التي سأكونها عندما أخرج. أطلقتُ ضحكة طويلة، التفت ابني وأخذ ينظر إليّ بفضول. أجل، إنها أمٌ تضحك. مثل بهيمتين، ابني وزوجي. كلاهما. يقتسمان المرأة ذاتها. أنا ممزقة وهندامي غير مرتب. ألبس حذاءً بلا قيطان، وشورتي القصير ينخفض متدلياً. في حقيبتي دفتر ملاحظات صغير ملون. ماذا يمكنني أن أسجل فيه من ملاحظات هنا سوى صور لا تحمل أي مغزى؟ الطريق خالٍ. خدمة الأرصاد الجوية تعلن عن طقس حسن في نهاية الأسبوع، قال زوجي، وسوف تشعرين بالراحة وأنت تنعمين بالشمس.

تتسلق السيارة التلال بلا أية مشكلات. قام بفحص ميكانيكها مسبقاً كي يتمكن من أخذي في هذه الرحلة. كان يجب أن أتسلل ليلاً وأنا أحمل إبرة لأثقب عجلاتها. لدينا من البنزين ما يكفي كي نصل حتى سيبيريا. سنجتاز، ذهاباً وإياباً، ثلوج سويسرا التي تتركز على جانبي الطرق. على

هذا النحو تبدأ الرواية. الشخصية التي تجلس في الخلف يأخذونها إلى مكان بعيد. تبدو كفتاة مطيعة وهي ترتدي شورتها القصير وترفع شعرها ليبدو كذيل حصان صغير، شكلها يكاد يشبه تلميذة، لكنها في الواقع تثير ذعر الكلاب، وتظهر الجروح على عينيها، كانت الجروح بسبب إطلاقات نارية. لكنها، كانت في الواقع ترى الأشجار وهي تدور مسرعة بسبب حركة السيارة المنطلقة، إذ تتداخل الأشجار مع بعضها وتُضفّر جذوعها مع بعضها البعض.

بدت لي جميعها شجرة واحدة. هي ليست أشجاراً بل إنها إحساس يهيج مشاعري. فمٌ مُتعَبٌ. مُعاب. يرتفع إلى السماء، ويمتد تحت الأرض، إنها في سائر أنحاء الفضاء. هناك شيءٌ مفقود. النظرات التي يرمقني بها رَجُليَّ ما هي إلا ركلات في أضلاعي. يدندن كلاهما بأغنية: «love me, love me, say that you love me» لكني أسدّ أذني عنهما لأضع بدلاً منها موسيقى «المرح» لموزارت، ميجور دي k334.

وصلنا!!، قال. ظهرت أمامنا بناية بأحجار غير متسقة مع مدخنة، سوف تكون هذه البناية مكاني الذي سأسكن فيه. سوف أفطر بقطع الخبز المحمصة مع مربى الخوخ المنزلية التي تصنعها مجموعة من المختلين عقلياً والمصابين بنوبات الغضب. مثلي أنا. سوف أعمل في الحديقة وفي ورش الأشغال اليدوية وسوف أنام على مرتبة ضيقة، جيراني الذي سيشاركوني غرفة النوم سيعانون من الكوابيس. مثلي أنا. سوف أقطع المسافات مشياً بين التلال غير المنتهية..

بكامل أوج عمري، أسقط حرة. سوف أعيد الحياة إلى الموتى، إذ سأشغل بالي بهذا الموضوع. سوف أجعلهم يقفزون من فوق السياج كالنعاج الصغيرة. وداعاً أيها القلق الذي يولّد مرضي بالجنس. نزل ثلاثتنا من السيارة بمظهر سائحين دائخين، صورة هنا، وصورة هناك. حسبت أنهم سيرافقوننا لمشاهدة الغرف المزودة بالأجهزة وحوض السباحة

وصالة الألعاب وغرفة الطعام. حسبت أني في شهر عسل. مثل النساء الأخريات. لكن حدث العكس تماماً، ثمة شخص يسحبني من ذراعيَّ ويضغط عليهما بقوة. قال لي مرحباً إلا أنه دفعني بهدوء. كنت أنظر كيف أن زوجي وابني، وهما يودعانني بحركة من أيديهما وكأن أي شيء لم يكن إلى جواري، ويقولان: وداعاً وداعاً، أيتها الجميلة، وداعاً وداعاً، مامي.

وهكذا حدث كل شيء على وجه السرعة، بعدها سمعت صوت المحرك وهو يدور، ثم انطلقت العجلات بهما في الطريق الذي يتوسط التلال، وهما يغنيان أغنية أخرى. أستدير. ثمة ممر ينتهي ببابين مغلقين. شخصٌ ما يتقدم نحوي ويدخلني إلى المصح.

أول صباحٍ من الصباحات الباقية أمضيه وأنا مضطجعة، وأصابع يدي تتدلى من السرير. يقترب مني أحد الأطباء. نظاراته المشوهة فوقي، كان يقترب بحدقاته الأربع. حلمتُ بأني تركت ابني الصغير نائماً تحت المطر الحامض. حلمتُ بأني لا أستطيع أن أحمله. كان ينظر إليّ من بعيد. عفواً. ماذا تقولين حضرتك؟ ماذا أقول؟ كنت أطلب المغفرة؟. كلا، لقد كان حلماً. هل يجب عليَّ أن أنهض من السرير؟. كلا، ليس عليكِ أن تفعلي أي شيء. هل بإمكاني البقاء في السرير؟ هل يذهب الناس هنا إلى العمل أثناء النهار؟ يعيش الناس هنا كما يحلو لهم. هل زوجي دفع المال كي يعيش كما يحلو له؟. يمكنه أن يرحل متى ما أعجبه. أليس هذا هو العالم الجديد؟ هو مكانٌ حسبه أنه أكثر هدوءاً من بقية الأمكنة. وعلى هذا النحو مضى يجرّ قدميه، شأنهُ شأنَ أيَّ كل طبيب يبدو عليه أنه متألم. بقيت أنظر الى ذبابة متموجة الألوان وهي تصطدام بالنافذة الكبيرة مرة ومرة أخرى حتى سقطت على الأرض. سقطت أجنحتها الزرقاء الصغيرة ونُثرت أجزاؤها على فراشي.

لا أحد كان يتجسس عليَّ سواي أنا. نهضت، وكنت أشعر بالسعادة كوني تحت رعاية مؤسسة لا تختلف عن أي فندق وتبدو نظيفة تماماً ومريحة. نزلت إلى الطابق الأسفل حيث صالة الطعام وأنا مليئة بالحياة. كنت لوحدي. شخصٌ ما عاد مجدداً الى الحياة. قلتُ مرحباً لكل واحد هناك، حتى إني سألتهم عن أسمائهم. عادةً لا أهتم بأسماء الناس، ما الفرق الذي سيحدثه ذلك. طبعت بضع قبلات في الوجوه، وصافحتهم وأنا أشدّ على أيديهم، وأحياناً أربّت على ظهورهم كي أزيد من عزمهم. بدا عليهم أنهم كانوا يقولون لي: ليعينك الرب أو ليباركك.

كان المرضى وموظفو الصحة يتركون بعضاً من لعابهم على وجهي وهم يقبلوني: موواواه، موواواه. أحدهم كان يصرخ بأنه كان يريد تناول

علاج روهيبنول «Rohypnol» المنوم. كم إنه ممتع. اجتزت صالة الطعام التي تفوح منها رائحة حساء مكعبات الدجاج السريعة وخرجت إلى الحديقة. كان هناك جدار مشترك يفصلنا عن بيت كبير يحتوي على قطيع من الكلاب التي ترعى الأغنام. من مكان ما كانت تأتيني أنغام وموسيقى إحدى أغاني «الكموبيا» الفاحشة. رجل ما يطالع جريدة. أحد الرؤساء سقطت به طائرته. ورجل آخر علّق قائلاً: وأبٌ يقتل ابنته وسط احتفالات أعياد الميلاد. انتبهتُ للتو، أي عندما كنت أداعب خصلات شعري، إلى أنني لا أرى نساء في أي مكان هنا، باستثناء امرأتين ليس بوسعي أن أقول إنهما تنتميان إلى صنف النساء. زوجي وضعني في الحجر مع الرجال. أرى رؤوساً محلوقة، كأنها ثمرات جوز. تفوح مني رائحة التيستيرون. بدأ أحدهم بالسعال، وتنحنح آخر، كان جميعهم يدخنون. هناك أصوات خطيرة، تحتوي على مادة الرصاص. لكن، ماذا لو دخل الأطباء والمرضى في أحاديث السمر، هل يطرحونني أرضاً؟ أحدهم شعره أبيض، كان يغمزني. من أجل ماذا جاء بي إلى هنا؟ ليرى كم سأقاوم، أم لإثارة اشمئزاز تلك المصابة بالشبق.

تناولت حساء الشعيرية على طاولة مدورة وبعد أن انتهينا، أبدلوا الأطباق بلعب الورق الذي بدا أنه أثار متعتنا جميعاً. أحد الأصدقاء كان يحاول أن يمرر لي إشارة، كان ينظر في عيني بطريقة توحي بالذكورية. في الليل سمعت صوت نباح الكلاب وهو يجتاز السور كأنه شيء ينتمي إلى حياة أخرى. انزلقت بين ملايات الفراش كي أنام. كم شخص من الأشخاص الذين ناموا هنا في هذا المكان أصبحوا أمواتاً الآن؟. ثم ظهر. فكاه في فمي. عينه على مؤخرتي. أريد أن أمحوه بنارٍ تحرقه سريعاً، لكن لا أستطيع، تركت نفسي ليأخذها بلسم الرغبة، حتى إني لم أتذكرُ ابني.

حتى تخبريني عما حدث فسأظل هارباً، ولن أرغب في لمسك. وسوف أكون متيقظاً. أخفض صوتك واسكت، إذ ما زالوا لا يعرفونني هنا. ثمة صمت يمر بثقل. يجعلنا الطبيب المعالج نشعر بالمعاناة. زوجها يقول إنه في حالة يقظة دائمية. بماذا تفسرين حضرتك ذلك؟. كلانا لا يعرف ماذا يفعل بجسده القريب من جسد الآخر، أذرعنا متدلية، لا علاقة زوجية بيننا، كأننا صديقان. يفترض أنهم وفروا لنا هذا الفاصل الزمني العلاجي، ووفروا جليسة للأطفال في الغرفة المجاورة تهدهد الصغير بالأغنيات القديمة، كي نجد حلاً لمشكلاتنا الزوجية، كي نحاول أن نفتح جروحنا، قال أخصائي العلاج الوظيفي. ضحكت ثم قلت بعدها: أرجو المعذرة، لكن لا بدّ أن الغناء بهذه الطريقة المملة يؤدي بالطفل إلى الموت.

أنا هنا في مركز الإرشاد الصحي المثير للضحك، هذا الذي يطل على حديقة كبيرة ذات حشائش اصطناعية، والذي يحتوي على صينية أقداح الشاي هذه وموسيقى الاسترخاء الهادئة. إنها موسيقى للتفكير، قال أخصائي العلاج الوظيفي، موسيقى تجعلك تضع رأسك على الجدار لتفكر. وجه زوجي أحمر قرمزي، إنه ثور، يتجه نحوي بسرعة. يمتلك زوجي ذكراً أكبر ألف مرة من ذكور الآخرين، إلا أنه لا يجيد استخدامه. ولا يجيد استخدام لسانه كذلك. رحت أستمع إلى سلسلة من النصائح التي يقولها الأخصائي، لكني أعتقد وعلى نحو يثير الحماسة بأننا سوف نتطلق بسبب سوء استخدام اللسان. لسان إحدى الزواحف. لسان الحية النائمة الصغير. أبداً لم يكن لساناً كبيراً. لسانٌ دأب على اللعق. لسانٌ طيّع لا يعرف التصدي لخصمه. لا أعرف تفسيراً لوجود شخص آخرٍ، لا أعلم ماذا يريدونني أن أقول. أراه يتحول إلى زوجٍ غير سعيد، سأتبوّل على نفسي وأنت لتذهب إلى أمك العاهر التي أنجبتك، منذ أن عرفتك ونار الإثارة تشعلني، منذ أن عرفتك وأعصابي تنهار وشياطين السحر تتملكني. ماذا أصابكِ؟، قال زوجي. ماذا أصابك؟ أي نوع من الأمراض تعانين؟ أخبرته: العصاب. وما علاقتهم هنا بحالات العصاب التي تنتابك؟ الجميع له علاقة بذلك. تنظرين بشكل غريب، بماذا تفكرين؟

مرت في بالي صورة ما، أرجو المعذرة، لكنها صورة حصان أسود، عيناه جاحظتان، كان غير مبالٍ بشيء راح يسحقني ثم انحنى عليَّ. عفواً. أنت لستِ طبيعية على الإطلاق، لم تكوني مسترخية أبداً، إنه يهاجم وبعدها سيقول كوورل (اهدئي)، لكنه توقف تماماً. لا أعلم ما الذي قلته له؟، إنك لا تضاجعني. حسنٌ، على هذا النحو لا أشعر برغبة، تهربين، وجهكِ متجهم طوال اليوم. ذكرأخصائي العلاج الوظيفي كلمة التسامح واحترام الآخر، كنا نستمع إليه وكأننا نسمعه ونحن تحت الماء. آهٍ من هؤلاء الجمهوريين، جمهوريو الروح، تسامح؟، ماذا؟ عاد يسألني عن حالة اليقظة لدى زوجي. لم أجبه على ذلك. طلبوا مني أن أدندن بأغنية ما.

سيطرتُ على التعرق وعلى نبضات قلبي، لا أريد أن يتهمني بأي شيء. لماذا تشعرين بأنك في خطر؟. كم إنه سؤال مُضلل. ما الذي تعتقدينه أنه يتسبب في هذه الحالة؟. لأنني أعلم بكل شيء، وأقول كل شيء عن ظهر قلب وأنا أغمض عيني. شعرت بالضجر، كم هو سيئ ظل الآخرين الساقط، شعرت بالضجر، بدأت أدوخ. طفلي الصغير الذي لم يعد صغيراً للغاية كان يبكي في الغرفة المجاورة. ولم يكن لجليسة الأطفال أدنى فكرة عن كيفية تهدئته، لعلها متخصصة في مهنة أخرى.

سوف أضربك حتى تموت، قلت. كيف تسنى لي أن أقول سوف أضربك حتى تموت؟ هيا، اتصلي بالشرطة، هيا لا تخافي. كلا، لا تتصلي بهم. طيب، ارفعي دعوى ضدي بتهمة عدم رعايتها للطفل، مثلما يحدث في أفلام اليانكي الأميركية من قصصٍ عن الأمهات غير المتوازنات اللاتي في النهاية لا يطلقن الرصاص على أنفسهن كي يمتن، بل يندمجن مع العائلة ويصنعن البسكويت مع الشوكولاته كل يوم أحد. أنتِ امرأة مهملة، قال. كنت أنتظر أن يقول المزيد. هل ترغبين أن نجرب العلاج وأنت مع العائلة ويكون الطفل جزءاً من ذلك؟. هراء!!. أنت صبيانية، قال، مقابل نظرة موافقة ضمنية أبداها المعالج النفسي. راق أحدهما للآخر. أنت زوج قذر، فكرت، عانقته بقوة، وتجاهلت وجود أخصائي العلاج الذي كان يسجل في دفتره شيئاً ما خفيّاً، لكنه بالتأكيد

كان شيئاً ممتعاً، رحت أضمه وأضمه أكثر حتى عصرتُ أحشاء بطنه. تلمسته!! متوقعة أنه لن يرفضني، وأن لا يلقي بي جانباً. لكن قديسي لم يفعل ذلك.

ذهب وبقيت أرسل نظراتي إلى الحديقة كأنها جرف صخري مرتفع وحاد ينتهي عنده البحر. ذهب وأخذ معه طفله الصغير. ثمة إحساس تملكني بأنني دمرت كل شيء. لحظة من الجنون أتت على وجودي لأجد نفسي بمظهر من تحمل السلاح بكلتا يديها. كانت لدي رغبة في أن أطلق النار على نفسي إذ لم أعد أحتمل المزيد. لكن أية جلبة تثيرها تلك العصافير اللعينة.

خارج البناية، الطبيعة مستمرةٌ بطقوس استدعاء المساء. خرج البعض من صالة الطعام وهم يحملون ثمرة المندرين أو عنقود عنب لمشاهدة الطيور التي بدأت تهاجر من القارة بأجهزة المنظار الثنائية، كان رفيف أجنحتها يثير مشاعر العاطفة فيهم، رفيف الأجنحة تلك الحركة المتكررة التي تفعلها الطيور. عندما مررت بهم خارج البناية ابتسموا لي، ولكن عندما استوعبوا ما سيحدث حثوا خطاهم وأسرعوا هاربين.

شعرتُ بأني امرأة شهوانية وأنا أمشي في هذا الممر ثدياي يظهران من فتحة الياقة، وتنفتح عيناي باتساع، كان شعري الذاوي ينزل مسترسلاً، وابتسامة المنتصرة تعلو وجهي، والسلاحُ بيدي مرفوعاً إلى الأعلى. كان الأخصائي المعالج يتعقبني عن قرب، لكني تمكنتُ من رؤيته في الأبواب الزجاجية. التصق بي حذاؤه كما تلتصق العلكة. كان قلقاً من سلوكي الذي قمت به أثناء الجلسة العلاجية الزوجية. أسرع ليخطو بضع خطوات نحوي وطلب مني وجسمه يتنفض خوفاً أن أرافقه إلى مكتبه. هل يمكنك مرافقتي؟ لكنه عندما شاهد أن يدي تأخذان شكل مسدس، وسبابتي تضغط على مكان الزناد، رجع بقوة إلى الخلف. صرخ اللعنة!!.

وبعد أن التقط أنفاسه حثني على الدخول إلى مكتبه، ثم أغلق الباب خلفي بالمفتاح. سمحت لنفسي أن أقول لكِ هذا، وأنا أعلم بأنه نوع من التدخل في حياتك، بدأ يتكلم وبالكاد يلتقط أنفاسه فيما رحت أتثاءب. كان عقله مأخوذاً بفكرة أن يطلب مني أن أقطع يدي إلا أنه كان يعلم أن ذلك أمر غير مشروع، أكره أن أضيع الوقت مع الذين يكررون الحقائق حتى لو كنت أنا. شاهدت من خلف الستارة ذات اللون البيج بأن مجموعة من الأطباء المقيمين يلعبون لعبة «الباتو» وهم يجلسون متحلقين حول الرجل الذي يلعب دور البطة التي سيمسك أحدهم بها.

كان يقول بأن زوجي يشعر بأنه عاجز أمام شخصية الرجل المجهول، الرجل البلدوزر. وأن هواء بيتي صار فاسداً، وإنه يفضل إلى الآن أن أبقى أسبوعاً أخرَ، تحدثوا بكل ذلك في غيابي، أما الآن فقد أصبح هذا الحديث رسمياً، أشعر بالندم. أريد أن ينتهي النهار في الحال وأن يبدأ الليل، وأن يدعوني أخرج كي أكون بمواجهة الحيوانات. لكني في النهاية أخبرته بأني كنت أشعر بأني المسؤولة في أن أعيد التفكير بدوري كزوجة وأم، وأنه كان أمراً مفيداً أن أبقى لأسبوعٍ آخر في المصح. ثم لا داعي لأن تعود يدي لتمتلك خمسة أصابع...

حاول أن يقنعني بأن أعترف، إلا أنه سرعان ما انتبه إلى نظرة عيني وفتح الباب. خرجت إلى الرواق وهرعت إلى غرفتي. بخار الحمامات جعلني وكأني مصابة بالعمى. اتصلت بزوجي: «تتصل حضرتك بهاتف العائلة X يمكنك ترك رسالة حال سماعك الإشارة. سوف نتصل بك لاحقاً، شكراً». ها هو مثل كل مرة. كيف يخططان ليستمرا في حياتهما، كيف يحدث أن يكونا متشابهين للغاية. حتى في قطيع الماعز من المؤكد أن واحداً في هذا القطيع يختلف عن البقية بطريقة رفع فكه.

رحت أركض في الرواق. خرجت عبر طريق مختصر، وقفزت من فوق لوحات الهدم التحذيرية الموجودة في الطريق، مشيت ولم أصادف أحداً. ما الذي يمكن أن يفعله الآن الأب والابن. أتخيلهما في المسبح عاريين تحت دفقة ساخنة من الماء، ينظران إلى القُراد. أراهما وهما يلعبان بخرطوم الماء ويرسمان الحروف في الهواء. إنهما في الحديقة مطأطئي الرأس يقتلعان البقول ويأكلان الخضار. وبعدها سيتناولان الحلوى المثلجة تحت ضوء القمر، سوف يحكي الأب لابنه عن اسم كل نجمة. الابن يشير بيده. يهزّ الأب الطفل الذي ينام في الأرجوحة المشبكة في الحديقة. ويهزّ الطفل الأب عندما ينام فيها. أراهما وهما يبدآن بنسياني تدريجياً في هذه الليلة وسوف يبدآن بنسياني ببطء في الليلة التالية أيضاً.

كلاهما كانا في الجهة المقابلة من الطريق، يحملان أكياساً وطعاماً. يبدو من الأفضل ترك الطفل خارج هذه الأمكنة. نزلت فجراً كي أتناول الإفطار، إنها المرة الأولى التي أجد فيها غرفة الطعام فارغة. ذهبت بعد ذلك خارج البيت، شعري مبلل ولباس السباحة يضغط على ثديي ثم ابتسمت لهما. إنه يوم مهم، قال. ثم ركبنا سيارة الدفع الرباعي التي قد أعارها له رجل مهتم بوضعنا. وعلى مدى بضعة كيلومترات وحتى بعدما دخلنا نقطة تحصيل أجور عبور الجسر، كنا نشعر بالسعادة ووجوهنا تواجه الريح، كنا ننشد إحدى أغنيات الثمانينيات الكلاسيكية التي كنا نستمع إليها في المذياع، ويضع أحدنا ذراعه حول رقبة الآخر ويمسده له. الحياة مستمرة. وعلى مدى بضعة كيلومترات كذلك قطعنا المسافة صوب الجنوب، كنا عائلة مثالية، أم وأب وابن، تحمل علبة واقٍ للشمس SPF25، ودثاراً ومعاطف تقي البرد عندما تغيب الشمس. مررنا بنقاط سيطرة الشرطة بنجاح ثم اجتزنا مشتل لأشجار الصنوبر الشاهقة وأشجار اليوكالبتوس.

ثم بدأت تفوح آتيةً من الطريق رائحة الملح، توقفنا وأخذ زوجي يهيئ الصغير لأول اتصال له مع البحر. نظرتُ إلى نفسي في المرآة الجانبية للسيارة، ولم ألاحظ أي شيء غريب، حبيبي، يروق لي أحياناً أن أسميه حبيبي. كان يتحدث إليّ، لكن لا أعلم عن أي شيءٍ يتحدث، يحكي لي عنه عندما كان ولداً صبياً، شعرتُ بأني زوجة طيبة وأنا أستمع إليه، وأقول له بانتباه: أها، أها. أنزلنا من الصندوق شمسية البحر والمعاطف والأغطية، كل شيء كان قد جهزه بعناية. كان الطفل يشير إلى البحر مجنوناً به. إنه فأل حسن، لا تنسي أن نعمل فيديو للحظة دخوله تحديداً، قال زوجي، وهو منجذبٌ تماماً مثله إلى هذا الإعصار الذي يتقدم ثم ينفتل ويلتف على نفسه.

نحن الآن في قمة الحدث. نقفز على الرمل ونكتوي به ونطلق الضحكات، ثلاثتنا، ثم انتبهت إلى أن سيدة عجوز تلبس المايو، عبأت نفسها به، كانت تغطي جسمها بالكريم الواقي للشمس، وكانت تبتسم من مكانها وهي في إحدى الخيم المنصوبة على الشاطئ، فرحة وهي ترى عائلة متماسكة. كل شيء كان يسير على ما يرام. الحارس، حامل راية الشواطئ أعلن أن البحر هادئ الآن ويمكن السباحة فيه، فيما كانت منكسة إلى الأسفل الرايات والإشارات غير المستخدمة: احذر، خطر، ممنوع السباحة، فقدان طفل.

كان البعض ينامون في الأراجيح الشبكية المصنوعة من الخيوط الملونة التي نصبوها على الشاطئ. وآخرون يستلقون عراة كي تكتسب جلودهم لوناً برونزياً. لفت أحدهم انتباهي، كان شديد الحمرة إذ ذابت ملامحه خلف تلك البشرة البرغندية. هناك الكثير من الصغار كانوا يلعبون ويركضون ويلفون وهم يسرقون أحذية الناس ويصنعون دوامات من الرمل، استسلم صغيري لينضم إلى الشُلّة وسرعان ما أصبحوا قطيعاً من الأطفال الصغار الطلقاء. طلب إليّ زوجي أن أدهن له عضلات مؤخرته بكريم برونزاج البشرة ثم استلقى. وبعد مرور دقيقة لم يعد يتكلم معي.

لم أرغب أبداً بأن تلتقي نظراتي مع أية واحدة من النساء اللاتي كُنَّ يمسكن كتباً مفتوحة بحثاً عن الجوانب التي يمكن التسلي بها، لا أشاء أن أكون تحت رقابة أحد، استلقيتُ كي تحترق بشرتي أيضاً بينما رحت أستمع إلى صراخ الأطفال الذين يركضون ويتشاجرون في الخلف. ربما غفوت لبضع لحظات، مَنْ يعلم، الفكرة هي أنني عندما ألتفت وأنا على الكرسي البلاستيكي الطويل (chaise longue) غير المريح، كنت لاحظت أن زوجي غارقٌ تماماً في النوم، كان ذكره منتصباً كما لم يكن

من قبل أبداً. بقيت أنظر إليه وأنا متجمدة في مكاني، لكن لم تبدُ على وجهه أية إشارات، ولا يمكنني أن أُخمن من أين أتى هذا الانتصاب. شعرت بالإثارة، لأنني من جانب ما كانت تأتيني تلك الرغبة التي من الواضح لست أنا من تسبّب فيها، رميت بنفسي إلى جانبه، تلك الرغبة كانت تعوم بداخلي إذ كنت رخوة مثل كريمة البروليه كراميل المحروقة. ثم حدث الأمر هناك، ويبدو، وعلى حسب ما أتذكر، كان قد بدأ كل شيء. هززته قليلاً، لكنه قال حركيه أكثر. ثم رفعت لباسه الخاص بالسباحة. نبهتني السيدة التي كانت ترتدي المايو إلى أن هناك أولاداً صغاراً في الجوار وأنه شاطئ مخصص للعوائل وأن هناك أمكنة أخرى لممارسة ذلك.

كان زوجي مازال ميتاً، إلا أن ذلك الشيء النابض بالحياة هناك بدأ يبهرني ويشوشني وبدا لي وكأني أخفي شيئاً ما. كنت أشعر بالغيرة من حلمه وكنت أرغب برؤية المزيد، أزحتُ الستارة وصرخت: استيقظ حالاً، هيا. أخبريني بالضبط ما الذي يحدث؟ وهناك نظر إليّ وقال لي مجنونة. ضربته بقوة في صدره. وغيمة الأطفال الذين يلفهم الرمل توقفت، ولأن الأولاد دأبوا على المبالغة، فقد شرعوا بالبكاء بصوت مرتفع. لم نكن نحن آباؤهم، لذلك، ولأن الأولاد يبالغون في حساسيتهم سارعت الأمهات لإصلاح الأمر، وكأنهم كانوا يحضرون أحد مشاهد ممارسة الحب العنيفة، وهممن بلفهم بمناشفهن الكبيرة المخصصة للسباحة، كي يغطين أعينهم وآذانهم، بينما كان هناك مجموعة من الأشخاص تصرفوا بكثير من الالتزام مع ما حدث، وأبلغوا المنقذ الذي عند تدخله في هذه القضية وجد الطريقة كي يكون وجوده نافعاً للحظة.

زوجي الذي استيقظ للتو، لم يدافع عني على الإطلاق، تركني للأسود، وإلى الذين انهالوا عليَّ بالسُّباب وبسلسلة الكلمات البذيئة التي يقولها على الدوام الواعظون، ثم حمل الولد الصغير ذا الأنف

الأسود وهو يبصق أحجاراً صغيرة وتركني، هذا الجبان الكبير مع جميع النظرات الموجهة إليَّ، لم يتحمل أية مسؤولية. لم توقف هذه النقطة زوجي كي تثير اهتمامه، حتى إنه لم يبدُ رجلاً. كانت سيارتنا تسير بصمت تام فوق الخطوط البيضاء، عندها أدركنا بأننا لم نأتِ بصغيرنا كي يتعرف على البحر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يجب أن أعيد الحياة ذهنياً إلى كل شيء، هذا ما تبقى لي، الهروب، لأنني على الأقل أمتلك الوقت هنا، في الليلة التي كنت أتحرك فيها جيئة وذهاباً نحو الشباك والقداحة بيدي أولاً، مع شمعدان بسبعة أذرع، بعدها، أذهب وأجيء وأنا أتبع ظله. أشعل وأطفئ بطريقة متوالية الشموع كي أرى إن كان سيذهب أم يبقى، أم إنه كان من الذين يقاومون الأعاصير. نام زوجي مستلقياً وهاتفه الجوال على صدره، ولم يفكر البتة بالخطر الذي تتسبب فيه الإشعاعات. يسقط طفلي من فراشه وهو نائم لكنه يواصل بعدها مشيه وسقوطه في أنحاء مختلفة في البيت، يمسك بالستائر وبالطاولات الخشبية المنخفضة الصغيرة التي تعود إلى قرون أخرى، يلقي بكل شيء يصادفه، المنفضات والأغطية ويحتفظ بالشمعة، ربما كي لا يضاجعني رجل آخر شرط أن لا يكون بابا.

أخذت ألفّ كثيراً حتى تمكنت من أن أضعه في مهده وأوقف صراخه، ورحت أقلب أحد كتبه الصغيرة التي تتحدث عن رواد الفضاء وقباطنة السفن وإقناعه أن أفضل شيء يمكن أن يفعله أحدنا في الليل هو النوم. ماما تكذب. عندما اقتربت من الباب ظهر زوجي وهو يرتدي شورتاً بمربعات وهو يبحث عن عقب سجائر متبقٍ. لكنه كان وسيماً، جميع الرجال يبدون وسيمين وهم نصف نائمين، شيء ما يرتخي في المثلث الذي بين العينين والأنف والفم، شيءٌ ما يجعلهم أقل رجولة. إلى أين تذهبين؟ إلى لا مكان، خارج البيت، قلت. الإجابتان لم تكونا مؤثرتين قطّ. تذهبين خارج البيت؟، لأي شأن؟. من أجل لا شيء. كي أرمي النفايات، أجبته وكان عليَّ أن أبتكر شيئاً ما أكثر اختلاقاً كي أقوله. اتركي كيس النفايات هناك عند الباب، وأنا أرميه في الصباح. يثيرُ لعنتي عندما يلعب دور الرجل الطيب.

ليس أمامي خيار آخر سوى البقاء مع الرغبات، سوف أغرز مخدة بين ساقي. أو أهرب حالما ينام، وأقفز على الحاجز الحديدي المشبك للباب. وضع الغلاية، وأضاف بعضاً من الحطب في الموقد ثم طقطق أصابعه، لا يبدو عليه أنه مستعد كثيراً للذهاب إلى النوم. انتظرت حتى يغلي الماء دون أن أعرف أين كان يتمشى الآخر، إذ لا يتسنى لي سماع صوت الـ (تيتيتيت) الذي يصدر من خاتم يده التي يمررها فوق القضبان الحديدية للحاجز، ولم أكن أشعر بالحشرجة التي تحدث خلف الشبابيك. كان زوجي يرمقني بنظرات عينيه وهما تبعثان إشعاعاً صغيراً. بينما كان يلتقط قطع بسكويت طفلنا الصغير ويتناولها، كان يحاول أن يبدو طبيعياً في تصرفاته، في حين أنه كان يعيق تقدم خطواتي، بل كان يحاصرني.

قمتُ بعمل كل شيء، ذهبت لأرى ما إذا كان طفلي الصغير قد شنق نفسه بحبل لعبته الأرنب ذي العجلات، ثم أفرغت الصحون ونظفت سطح مغسلة المطبخ وأسطح خزاناتها المنضدية. جلستُ في الشباك المفتوح ودخنتُ بضعة أنفاس من سيجارته السوداء المطوقة بآثار شفتيه. في الداخل كان ينام ابن امرأة أخرى. ولادة طفل، ولماذا؟ قلّبتُ هذا الأمر في بالي وأنا أنظر إلى الأدغال التي بدت ألوانها أكثر وضوحاً. كان يجلس متكئاً وموقد النار خلفه وهو يلعب الشطرنج لوحده، وعندما يحرك بيدقاً ما، كأنه يوشك أن يقول شيئاً، مثلاً لنجعل عائلتنا كبيرة، لننجب له أختاً صغيرة كي لا يشعر بالضجر، لكنه فعل العكس، حرك قطعة الشطرنج فوق اللوح وقال إنه سينسحب من اللعبة. أراد أن يعرف كم من الوقت سأبقى هنا وأنا أدور داخل البيت، ثم قلت له، حسنٌ أنا قادمة، ها قد جئت الآن، أمضِ أنت، ثم طبع على وجهي قبلة صغيرة، لكن بدا وكأنه بعيد عني بعيد للغاية، كنا مثل تمثالين. وعندما كنت على وشك الخروج ناداني من الحمام. وقال لي أن أنتبه، من ماذا؟ قلت له، من دون أن أدخل أو من دون أن أسمح له أن يراني، أنت تعلمين، انتبهي لنفسك، وبعدها ذهب مباشرة إلى النوم. لم أتمكن من الخروج إذ بعد أن رأيته نسيتُ كل

ما حدث سابقاً، بيتنا الذي عجَّ بالدخان، طفلي الجندي الروسي الصغير النائم وعيناه المفتوحتان كعينا أرنب، وأيامي التي تشتعل كالنار. ابتلعتُ كل ذلك. فمن أجل ذلك وُجدت الليالي، بني.

الحياة لا تسير، كنت أفكر، بينما كانوا يصدرون عليَّ حكماً بإجراء سلسلة من الاستشارات الطبية يجريها لي عدد من الأطباء الأخصائيين نتيجة لذهابنا المشؤوم إلى البحر. أحد التمارين العلاجية كان عزلي في غرفة بمرآة أنظر فيها لساعات، كي يكون بوسعي في النهاية أن أقول ماذا رأيت. لكن ليس ضرورياً أن يسرفوا في التعامل مع طاقتي، لا أحتاج إلى انعكاس وجهي في المرآة كي أعرف بأني لست سوى قذارة. لأجل ماذا؟، لماذا لا تغلقين فمكِ. انسي الموضوع. لماذا تقولين بأنك قذارة؟ هل هذا ما تظنينه حضرتك بنفسك أم ما يظنه بك الآخرون؟. أكاد لا أجيبه.

أنا أعلم الآن بأني قذارة. ثمة رائحة قوية لدجاج متبلٍ كانت تأتي من الخارج، بعدها أخذوا يشاهدون فيلماً حول العلاقات الإنسانية لينتهون بمناقشة سينمائية. هل تفتقدين أشياءك التي تحبينها؟ كانوا يسألوني ورأسي كان في صهريج ماء كنت أرى فيه ابني، وقد أصبح وجهه صغيراً وخداه متسخين ومؤخرته حمراء وشعره أشقر. هل تفتقدين أرضك؟ أصروا. كأنه فلاحٌ بولندي. أصهب الشعر. شخصٌ منفيٌ مثلي أنا. واستمروا يثيرون الصخب بكلماتهم المحنطة.

عملياً كانوا يتحدثون ويكادون يتناوبون في الحديث، في حين كانت تدور في رأسي موسيقى غلين غولد وهو يلعب سويتات باخ على البيانو. لماذا لم تصلا إلى البحر وتفعلان ذلك هناك؟ كانوا مصرين على السؤال. إنه رمزي، ألا يبدو لكما ذلك؟، لماذا لم يشجع أحدكما الآخر كي تحددا نهاية ما تريدان؟

تراءت لي صورة نفسي وأنا مرتدية مايو السباحة الصغير، ونقطتي صدري الورديتين البارزيتين تواجهان مهب الريح، وفرجي الذي يكسوه

الرمل وعيناي الحزينتان بأعوام عمري الثلاثة. لا بدّ أن لذلك علاقة بالأمر، فكرت، لكني لن أعطيهم أية معلومة، إذا أرادوا إجراء تحليلٍ لي، فليجروه لكن من دون آثار لذلك. كان عمري ثلاث سنوات. هربتُ من عائلتي عندما لم يعيراني اهتماماً أمي البطة وأبي البط. أخذت نبرة نقاشهم ترتفع، سوف أرحل، وسوف أضيع في مياه الشاطئ تلك التي تشبه اللعاب. وفجأة لم أعد أرى أي أحد أعرفه، جميع الأشياء كانت ملونة مايوهات السباحة والأفواه التي كانت تتحرك، لكن لا أحد منهم يعرف من أكون أنا.

بقيت طوال المساء لوحدي، أسير من خيمة إلى أخرى، آكل ما أعثر عليه في طريقي من بقايا المعجنات والحلوى، وأترك نفسي كي يداعب رأسي الرجال الذين كانوا يقرؤون الصحف وهم يغمرون أقدامهم في الأرض الرملية، وكنت أهدُّ قلاعَ الرمل التي بناها الآخرون، وأتسلق على أطرافي الأربع الحاجز الحجري الذي يصدّ الأمواج. حتى اقترب مني رجل ضخم وسألني عن أمي وأبي وعن اسمي لكن لم يخطر ببالي في ذلك الوقت أن أكذب، أمسك بي وحملني على كتفيه وبدؤوا يصفقون. أنا قردة صغيرة تتجول وقد صعدت على كتف أحد المنقذين الذين يعملون في البحر فيما بدأ كل الذين كان من حولنا يصفقون بلاب، بلاب، بلاب. ماذا يريدون؟

كان المنقذ الذي رسم وشماً على جسمه يرسل لي ابتسامة يبعثها من أعلى قامته البالغة مترين ومن أسنانه الطويلة أيضاً. كنت فتاة صغيرة لكن كان يروق لي أيضاً أن يحكني مايو السباحة من قفاي بينما يجري الناس من حولي. مازالوا يلقون كلماتهم المملة، وأنا ألقي برأسي إلى الخلف، وفي مضمار الجري السريع كنت أرى سماءً زرقاء وحسب وأنا نجمة سيرك روسية يحتفلون بها. أنا طفلة مقدسة. ها أنهم غيّروا الراية ليضعوا مكانها راية طفل مفقود، لابد أنهم وضعوها لأن طفلاً قد اختفى. وبالتالي شاهدت من المرفأ جسمين يجريان ويتعثران، شاهدت اثنين من الفيلة يمدان خرطوميهما لكي يشما جسمي. أتمسك وأنا أضغط بساقيَّ على رقبة منقذي، غير أن أنثى الفيل كانت تشمني وتعانقني بخرطومها.

احتفل الجميع باللقاء الثاني هذا، في مكبِّر الصوت أثنوا على دعم الناس، إذ كانت تُسمع همهمة حول النجاح الذي تحقق. أصابني مسٌ كي أقول، انتظروا، استمروا في البحث، هذه ليست عائلتي، لكن، مرة أخرى، تخطر الأفكار الآن في بالي متأخرة.

ينظر إليّ الأخصائيون، بماذا تفكرين؟ هل حدث لكِ خطبٌ ما؟. أرى الآن طفلي الصغير يريد الجلوس على الأرض على سجادة البحر المصنوعة من الخيش مع أشخاص مجهولين، كان وديعاً وصامتاً، وعندما حزموا أشياءهم وأمتعتهم وهمّوا بالرحيل، ذهب معهم وتبع قطار حياتهم. لِنَختُم الجلسة، قالوا بالإجماع، ولم أتفوه بأية كلمة. خرجت وأنا دائخة. أسير فاقدة لتوازني، كنت بالكاد أتمكن من مسك جدار الرواق. هذان الببغاوان صدعا رأسي. من أنا؟ انطلقت وضحكت. ثم عدت لأقول لنفسي وأنا أضحك بقوة أكبر، مَن؟. وجدت بأني تلك الأم التي انتهت أمام ابنها لتكون تلك البنت الصغيرة التي رأت أباها.

همس لي العديد من الأطباء المقيمين: دعينا ننام بسلام!!. كنت أخرج قدر ما أمكنني، كنت ألفّ وأدور حتى بلغت منتصف حديقة المصح. استلقيت على العشب. كان المنظر وما يحيط به من أشياء مظلماً حالك السواد. ثمة شيء يلوح في الفضاء. جو يشي ببداية الفجر. مذ كنت طفلة صغيرة، عندما كانوا يوقظوني من النوم ثم يلبسوني كي نخرج في رحلة في القطار، وأنا ألبس فردتي الحذاء الواحدة عكس الأخرى لأجل أن أصحح ساقيَّ المتقوستين. في تلك الليلة رأيتُ تلك السماء عندما كنتُ على كتفي ذلك الرجل ضخم البنية وكنت تلك الطفلة التي فقدت أهلها، الطفلة التي لا يمكن أن يعثروا عليها.

استيقظت وكنت داخل غابتي، وانتبهت، كما يحدث مع مَن يلتقي بشخصٍ تنقصه ذراع أو عين، بأني ما عدت أشعر بحب ابني. خرجتُ من الغرفة التي تملؤها الرطوبة لأبحثُ عن الضوء، لكنها كانت تمطر في الخارج. سمعت صرخات الحيوانات الصغيرة وإحساسي بالغابة صار يصبحُ أكبر. فكرت أنني عندما أرى الأيل، وأن الأيل ينظر لي، سيكون بوسعه مساعدتي. لكنني لم أعثر على قرونه بل وجدت ممرضات.

تمشيت بالقرب من المصح من غير أن أشعر. ثم مشيتُ ومشيت لأرتطم ببابٍ ما وسلّم. عندما وصلتُ إلى أحد الأمكنة، أجلسوني ثم عصبوا عينيَّ. لا أعلم ما الذي أفعله هناك وأنا جالسة على هذا النحو؟ لا أعلم لماذا عصبوا عيني؟، لكن ما الذي يهم، إن اشتعلت بي النار وأنا لا أشعر بحبه؟. أحدهم جعلني أشعر بالدوار وهو يُعد: واحد، اثنان، ثلاثة، ثم فكوا العصبة عن عيني وهم يتركون بيدي شيءٌ ما كأنه إبرة. راح الناس يتحسسون جسمي. كنت لا أعلم أن أدافع عن نفسي أم أفهم بأن كل شيء، بما في ذلك نفوري من ابني، كان مجرد حلم.

كانت هناك أصوات يطلقها الناس في الاحتفال ترشدني وأنا معصوبة العينين: باردٌ، باردٌ، فاترٌ، ساخنٌ، ساخن، ثم احترق!!، يبدو بأن إبرتي قد أصابت وعاء لعبة «البنياتا» المعلّق والمليء بالحلوى، لأن شيئاً ما قد انفجر وانطلق الجميع بالتصفيق. مازلت معصوبة العينين، ثم قالوا بأن بوسعي النظر الآن، لكنني كنت أريد تلك الظلمة المسلية أن تستمر، حتى رفع أولئك الغرباء الذين نفد صبرهم العصبة عن عيني. ونثروا عليَّ أشرطة الاحتفال الورقية الملونة، والمناشير الملونة وقدموا لي الهدايا وأنا مغطاة بالقصاصات الملونة الموشاة بالزخارف والنقوش.

نتمنى لكِ الأفضل في حياتكِ التي ستبدأ. أعطوني بطاقات التهنئة

والميداليات المستخدمة كتعويذات ثم رافقوني لأغادر. لقد ذهبت. وكانت النهاية. لكنها كانت البداية بالنسبة إليّ، لأن الأشياء المثيرة للحزن ستنتظرني هناك. فتحوا الباب الرئيس. كانوا هناك. الأب يرتدي ملابس الاحتفال الأنيقة، وابني الذي يمسك بيد أبيه يرتدي لباس كرة القدم. كراتي الصغيرة من الحلوى المطعمة بالطعم الحامض وفأري الصغير الذي دأب على القفز. مرحباً بك معنا. تركوني أتقدم نحوهما بينما تلاشى الآخرون من خلفي. زوجي وابنه. عانقنا بعضنا نحن الثلاثة، الطفل الصغير صار يمشي الآن، وظهرت له أسنان أخرى وأصبح يعرف كلمات أكثر من مثل كوينغ كوينغ وتاك تاك.

أخبرنا زوجي بنكتة كي يلطف الوضع، وأخيراً خرجتِ، الآن سيكون بوسعنا أن نعيش بسلام، سلموا عليَّ كأنهم يريدون أن يقولوا بأنني أصبحت الآن مستعدة، حصلت على الدبلوما وتخرجت، وقد حان الوقت كي أتابع حياتي. أوقف السيارة على جانب الطريق وعلى ضفة نهرٍ لم أشاهده من قبل طلب مني أن أغلق عيني، ومن جديد لم أعد أرى. طفلي الصغير لم يكن بوسعه أن يتمالك نفسه إزاء المزيد من السعادة فكان يتحرك وهو يهزّ نفسه. ضغط زوجي على زر صغير وانفتح سقف السيارة على شكل طاووس. بقيت في السيارة فيما نزل كلاهما كي يشاهدا كيف ستبدو. مجنون ابني وهو يشعر بالغبطة إذ يرفع يديه ويتركهما للهواء كي يجرفهما بقوته. كان يرمي الأحجار في النهر. أخبرته أن يتوقف، إذ من الخطورة أن يفعل ذلك، ومن الممكن أن يحمله الهواء معه، إلا أنه لم يعرني بالاً. شكوت أمام زوجي، لكن لا شيء. لم يفعل شيئاً.

وهكذا قطعنا الكيلومترات التي تفصل بيتي الكائن في الريف عن المكان الآخر الذي هوى ساقطاً في غفلة ما مضى. سالآني كيف كنت أشعر في المصح، وما إذا ما كان لدي أصدقاءٌ، أو ما إذا قدموا لي هدية. شعرت أن رأسي بدأ يطير من مكانه، غير أن زوجي أسرع كي نشعر بمزيد من البهجة. وسرعان ما دخلنا إلى البلدة حيث رافقونا حتى الجهة المقابلة

لمذبح الكنيسة. هناك كل شيء موجود مجدداً، الجرارات والعنابر والجيران وهم يدخنون السجائر عند عتبات أبواب بيوتهم. دخلت إلى بيتي، كل شيء فيه يضيءُ، لاحظت بعض من التغييرات قد طرأت فيه، وهناك مايكرويف بساعة إلكترونية يتوهج ضوؤها، ملاية مطرزة بأزهار البتلة الكبيرة، هاتف أرضيٌّ جديد، والآن لاسلكي مع دفتر للملاحظات. جلستُ على الكنبة المواجهة لموقد النار. كانت حركاتهما هالات من النور. انعكاس الضوء الذي ترسله السكين التي حلمت بها عاد إلى يدي. لو أن هناك تفاعلاً بدلاً من التوبة، لو أن هناك حقاً مشفًى للمجاذيب بدلاً من بيت الهدوء، لما كان هذا المطوى الكبير بيدي. خرجتُ مذعورة. الباب الزجاجي الذي كنت قد ارتطمت به فيما مضى يحمل الآن ناموسية. فتحته وخرجت وأنا أركض للبحث عنه. كنت أحتاج إلى أن ألتقي مع طرف قرونه. أيلي الحبيب، أيلُ قلبي الصغير، أيها الأيل، ليتني أجدك.

كان البيت مزيناً بطريقة رائعة، كان بوسعي أن أكون فخورة بنفسي، أعلام صغيرة ترفع على السيارات الاصطدامية الترفيهية الصغيرة. المائدة تتوزع عليها أطباق الطعام المخصص للاحتفال، هدية مجهزة لكل واحدٍ من المدعوين، والمحتفى به كان بكامل أناقته. ألوان حادة وموسيقى وجميع التفاصيل التي يمكن أن تتضمنها الحفلات. أصبح عمر ابني، حمامتي الصغيرة، سنتين وأنا في داخل عقلي ما زلت أحاول الاجتهاد كي أعمل شيئاً ما، لأنه قد وصل، وها إنه هنا الآن، إذ بالإمكان الآن رؤية رأسه الصغير.

ولكي ننفخ على الشموع وقف زوجي خلفي، والعديد من الكاميرات، كانت مثبتة لالتقاط الصور للحفل. هناك كنا من أجل أبدية الصورة التي سنلتقطها، طبعتنا الصورة، كأننا سور. بعد ذلك قالوا إن طفلي الصغير، لأنه لم يعد صغيراً بعد الآن، بصق كعكة الموز مع الشوكولاته وفرَّ مني. رحت أجري خلفه، ثم أطحتُ به على الأرض وصرتُ أقبله وأشمه، ثم عاد ليفرَّ مني مرة أخرى وأبناء جيراننا يلعبون في الحديقة لعبة الاختباء والغميضة ولعبة واحد اثنان السيجارة رقم 43، الألعاب هنا كلاسيكية لم تطرأ عليها أساليب الحداثة.

حملت ما تبقّى في الكأس من نبيذ يوم أمس، هززت الكأس ثم دخلت في الحفل مثل أي ضيف آخر، وصدري يغطيه الدهان. باقي الأمهات أبدين حسن نواياهن، ومن بين أسنانهنَّ كانت تتدلى خيوط الموز الصغيرة، كل شيء كان رائعاً. أنهيت كأسي وأنا مستلقية في الأرجوحة الشبكية في الحديقة، ثم أعددت لنفسي كأساً أخرى، سكبت فيها كمية قليلة للغاية من النبيذ ليس أكثر، وبعدها كمية أخرى قليلة للغاية أيضاً ثم شربتُ نخبي ونخب حفل عيد الميلاد الذي تمكنت من الإعداد له على نحو حسن. ولا أعلم لماذا ركّزت نظرتي على تلة ترابية. لم أفهم في بداية

الأمر. بقيتُ وأنا أنظر إلى التراب كما يمكن أن يحدث لأحدٍ وهو يشاهد صوراً لما حدث منذ مليون عام، الماضي الذي ننظر إليه من الحاضر. ثم جاء الكلب نحوي وعضني. هناك «بلودي» المسكين، تَحت الأرض. هناك حيث وضعنا أنا وزوجي الكلب، في الظهيرة وحسب، عندما كان الذباب يملأ عينيه. أمضى الليل كله في العراء ميتاً بعد أن أصابته الرصاصة، من غير أن يُدفن. خرجت أحشاؤه من جسمه. وهكذا فإنه مات ولم ينبح، حتى لم يتمكن من إطلاق عويله الأخير. وإذ كنت أتذكر منظر جثته استمعت إلى فرقعة الأصوات وهي ترتفع. كان الأولاد يمرون على قبره المرتجل ذاك ويغنون ويضحكون ويمسك أحدهم بيد الآخر. ولم أكن أعلم إن كان ذلك فرقعة أصوات أم إنه النبيذ المعتق أم ما تحدثه الأفواه التي تُركت عليها آثار الموز، لكني سرعان ما دخلت وأغلقت الباب ورائي بقوة. ليمُت الجميع. ولأنها كانت عادته، أخذ يطرق على باب غرفتي وراح يقول وهو يخاطبني: حبيبتي، ملكتي، امرأتي البدينة، أمي، حبيبتي الجميلة، المتوحشة. ما عدت أعرف الآن كم اسماً كنت أملك. لكني لم أتفوّه بشيء. هل أنت على ما يرام؟، وأنا لا شيء، لم أجبه بشيء. هيا اخرجي، فسوف يذهب جميع المدعوين، لا تدمري ما فعلتِه. أين الهدايا التي جهزتِها لهم؟. لماذا لا تتركني لوحدي وتموت، قلت. ثم صرخت: لِتَمُتْ يا حبيبي.

وبدا لي أن «بلودي» كان ينبح، كأنه يهرُّ وراء الباب يشكو قتلي له. فتحت باب غرفتي بقوة وخرجت. واجتزت غرفة الطعام حيث كانوا قد بدؤوا يودعون بعضهم باللمسات والعناق، وبالبحث عن معاطفهم المفقودة وبكاء الصغار الذين لم يرغبوا في الذهاب، ركبت السيارة ذات السقف الكابريوليت المكشوف. كنت مسرعة. لا أعلم إن وضعتُ الناقل الحركي للسيارة على الرقم واحد أم على الرقم ثلاثة. إلى أين تذهبين؟، هل أنت مجنونة؟ وسمعته من بعيد يقول: لا تملكين رخصة القيادة. إنه لك، أهديه لك، أعطيك إياه ملفوفاً بورق من الحرير، أنت تستحقه أكثر

مني. أعطيه لك أنت. أعطيك ابننا، صرخت، بينما خرج الناس ليروا ما الذي يجري، وقد بدؤوا همسهم بأنني فقدت عقلي مجدداً. المزيد من الأسيجة الخشبية والمزيد من الماعز والمزيد من الدجاج الذي سحقته السيارات على الإسفلت، المزيد من الطواحين التي لا تعمل، المزيد من الزوارق الغارقة في البحيرات، المزيد من المداخن التي تطلق أعمدة طويلة من الدخان الأسود، والمزيد من الحظائر.. حتى توقفت. قفزت من السيارة ودخلت.

عند النافذة كانت تجلس أميرته. أما في البيت، فلا يوجد شيء. لا هو ولا زوجته. لا أثرَ لأي أحد. هل يمكن أن يكونوا قد تركوا ابنتهم ذات الشخصية المتفردة؟. دخلتُ إلى جميع الغُرف، كنت أنظر إلى الفراش الذي اعتادا أن يمارسا فيه الحب. نظرت إلى حمّامه، والى فرشاة أسنانه، نظرتُ إلى كل شيء ينظرُ له هو منذ أن ينهض من فراشه، ثم ألقيتُ بنفسي على كرسيه الصغير المطرز الذي اتخذ مكانه في غرفة المعيشة. في الطابق الأعلى كانت ابنته تعوي، أما في الأسفل فكان صوت التك تاك المنبعث من الساعة الأرضية القديمة. استسلمتُ للنوم وحلمتُ بالصوت المقعر الذي كان يصدر من قرنه، وحلمت بظهره الممتد وبشعره الذي يهف على قرنيه، حتى أفقت على صوت ضحكات صغيرة. كانا هناك، على مقربة من الطريق الضيق المحاذي للأشجار، يحملان السلال ويجمعان الفطر. هل كنتُ قصة قديمة؟ خرجت ووقفت بانتظارهما. نظرت إليّ المرأة مرعوبة. طلب إليها بإشارة منه أن تصعد إلى الطابق الأعلى وتكون مع الصغيرة ثم سحبني من ذراعي. مشينا لنقطع خمسين متراً، أو ربما أكثر. وجهاً لوجه، ولم نتفوه بشيء. كم هو مثير للتقزز أن يتكلم المرء. قبّل كل منا الآخر. شاهدتُ ملامح وجهه وهي تتغير، لعله نظر إلى واحدة من الآثار التي تركها الزجاج على جسمي. كان لساني على لسانه كأنه دواء مهدئ. كنت أعلم بأن ذلك كان السبب، السبب الذي يقبلني من أجله. كانت بالغة القوة تلك القبلة وذلك الطعم المالح للدم وذلك التشويق لموت فجائي.

عندئذٍ وصل زوجي على ظهر دراجة بخارية صغيرة الحجم بدا وكأنه في الرابعة عشرة من عمره. وفجأة الثوران، ثوراي، حصانايَّ الأصيلان، بيدقاي الاثنان معاً. تفاهما بينهما كرجلين بالإشارات، ثم ذهبا لوحدهما في الأرض الخضراء المفتوحة وتوقفا عند مكان حيث لا يمكنني سماع ما يتحدثان به. كنت أشاهد ظلهما، وتضاريس ذلكما الجسدين المتقابلين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت الأم وابنتها الصغيرة عند النافذة، إحداهما أشدُّ بياضاً من الأخرى. هناك لاحظتهما كانا مستعدين للمشاجرة، لكن سرعان ما ساد الهدوء بينهما، وكان الأمر كما لو أنه لقاء ثانٍ بين شقيقين يتحدثان فيه عن أيام الطفولة في بيت العائلة الكبير، وكيف يتمكنان من دفع الديون المترتبة على أبويهما المتوفيين. وما إن حلَّ الليل علينا، حتى بدا جسداهما منغمسين في لجة سواده. كان رذاذ المطر الخفيف المستمر يتساقط عليهما. كانا مستمرين في حديثهما بينما تتأرجح حياتي جيئة وذهاباً. لا أعلم ما الذي يقولانه، إذ لم يرفعا صوتيهما، كان يبدو أن كليهما يفهم الآخر ويتضح ذلك من الطريقة التي يتحركان بها باتجاه جانب الطريق، كأنهما يصليان، إنها الطريقة التي يحركان بها رأسيهما بهدوء وهما متأكدان. أحدهما كان يتثاءب والآخر يضحك. إنهما متفقان. التوأم السيامي يبتعدان عن بعضها، وأحدهما يتجه نحوي. ارتجفت، إذ لم أعرف أي واحد منهما كان. كأننا كنا في السوق السوداء، حيث لم يُعرف من الذي يشتريني. وماذا سيحصل في حياتي، في أي بيت سأعيش، وماذا سيكون اسمي ومن الذي سيختارني؟.

أحدهما كان يسعل وسرعان ما عرفت أنه زوجي. زوجي الأكثر إخلاصاً. ذهبنا إلى السيارة التي بلا سقف، بصمت. كان صمتاً كبيراً للغاية أشد رهبةً من كل صمت مرّ بنا من قبل. في الطريق ونحن تحت المطر اكتشفت صفاً من أشجار السرو، هل هذا صف جديد؟، سألته. إنه موجود هنا دوماً، قال. لم يتوقف عند باب بيتنا لكني تمكنت من رؤية أن حفل عيد الميلاد كان قد انتهى بإطلاق بالونات زرقاء كانت تحلق فوق حديقة الألغام. هل ينام الطفل في الداخل؟ لم يعد طفلاً بعد الآن، قال. لكني فهمت، ابنك. دخلنا الغابة وخلفنا على الأرض آثار عجلات السيارة. كان هناك عدد قليل من الحيوانات المستيقظة. لم يظهر الأيل،

على العكس من ذلك أنا كنت موجودة. أوقف محرك السيارة واسترخى، وأطلق نفساً كان يحبسه بداخله لوقتٍ طويل. حسنٌ، ماذا تريدين أن تفعلي؟ كان يتنظرني أي شيء إلا أن يُوجه إليّ سؤالاً. فكرت أن النتيجة ستكون أما سلبية أو إيجابية وأنه سيقول لي كم تبقّى لي من الوقت، بالأسابيع وبالأيام، فكرت أنه سيبكي. لكن أن يوجه لي سؤالاً، لا، هذا ما لم أتوقعه. ماذا تقولين؟ لكن لم أتمكن من قول أي شيء، أيها المسكين.

ثم كانت هناك لحظة من الصمت استحالت فيها حياتي كلها إلى صوت صفير حاد. الغابة هي أشجار كأنها نمور متوحشة. لن أنسى، قال، كانت المرة الأولى التي يكون فيها رسمياً. صمت، أكثرُ عمقاً من الصمت الذي سبقه.

ثمة طنين أمسك بأذني، سريعاً كالسرعة التي يسقط طيرٌ ميت. كان لا يمكن عمل أي شيء بعد هذه النظرة، ما الذي بوسعي أن أضيف الآن. عندما رأى بأني لن أبدأ بالمشاجرة، قال وهو يشعل سيجارة، وفوق كل ذلك، إنهما ينتظران ابناً. حسنٌ، ينتظران اثنين، لأنهما توأم. وعلى الرغم من أننا حاولنا أن نكون جادين، إلا أننا لم نتمالك نفسينا من الضحك، لكن لا أعلم من ماذا، من كلمة توأم. وماذا لو أنجبنا نحن ابناً واحداً؟ ابناً آخر؟، سأل وهو مختنق من السعال. ثم عدنا لننفجر مرة أخرى بالضحك. طفلٌ آخر، لنا نحن. هناك كنا نحن الاثنين لآخر مرة ونحن نطلق القهقهات العالية كأي زوجين سعيدين. ترجلت من السيارة من دون أن أفتح الباب، كان مثالاً عملياً للانفصال. استدار بسيارته ونظر إليَّ وأنا أختفي بين شجيرات الغابة الكثيرة. أول لحظة مرت بي كانت لحظة خالصة من الألم. ذلك الألم الذي لا يمكن أن يقتسمه أحدنا مع نفسه ذاتها. عشت فترة حداد طويلة، لكني في لحظة ما كنت كالأرملة التي تضع المفتاح في باب بيتها لأول مرة، كأنها تتناول العشاء ولكن من دون أن تتحدث لأول مرة، كأني كما الأرملة التي تنام لوحدها لأول مرة، كنت أشعر بحزن يستفزني، حزن وحشي.

تقدم أريانا هارويكز في هذه الرواية نمطاً من النساء يثير التعاطف في نفس القارئ بسبب اضطراباتها التي تحيلها إلى كائن ضعيف، لكنه سرعان ما يتخلى عن شعوره هذا عندما يستفزه بل يثير نفوره واشمئزازه شعور مناقض يمارسه عليه سلوك وحشي غريب يرافق البطلة على امتداد الرواية. بل يسبقه شعور مفاجئ آخر يقوده إليه عنوان الرواية «لَتَمُتْ يا حبيبي» وما تلاه من بداية حيث تداعب البطلة السكين بيدها وتراودها فكرة قتل زوجها وابنها. امرأة لا تكف عن السعي إلى موتها وهي ترى في نفسها صورة المرأة الشهوانية التي تطاردها رغباتها ورغبات من يطاردها من الرجال الذين تذعن لهم باستسلام.

نجحت هارويكز في إثارة مشاعر القارئ وخلخلة مزاجه وخلق شعور بعدم الارتياح لديه وهي تعكس حالة الازدواجية التي تعانيها شخصية تلك المرأة وتلك الانتقالات المفاجئة لها وسط الرغبة التي تتنازعها تجاه زوجها والشعور بالنفور منه بل الرغبة في إزاحته من الوجود وهي تعمد إلى فرض سطوة لغة فجة ومباشرة. لغة تزداد صعوبة وتعقيداً وقرفاً كلما اقتربت من أسلوبية تفتقر إلى الحياء وتتعمق في رؤى حميمية وحسية جريئة عبر صيغة اقترحتها الكاتبة وأكدتها وهي تقول: «نعم، عندما أكتب أحاول تحطيم اللغة وتفكيكها، بين مزدوجين أحاول أن لا تجمعني بها علاقة حسنة، إذ إنني بفعل تحطيم اللغة وضربها أبحث عن دوزنتها وكأنها آلة موسيقية، آلة كمان أو بيانو مثلاً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: Sebastián Freire